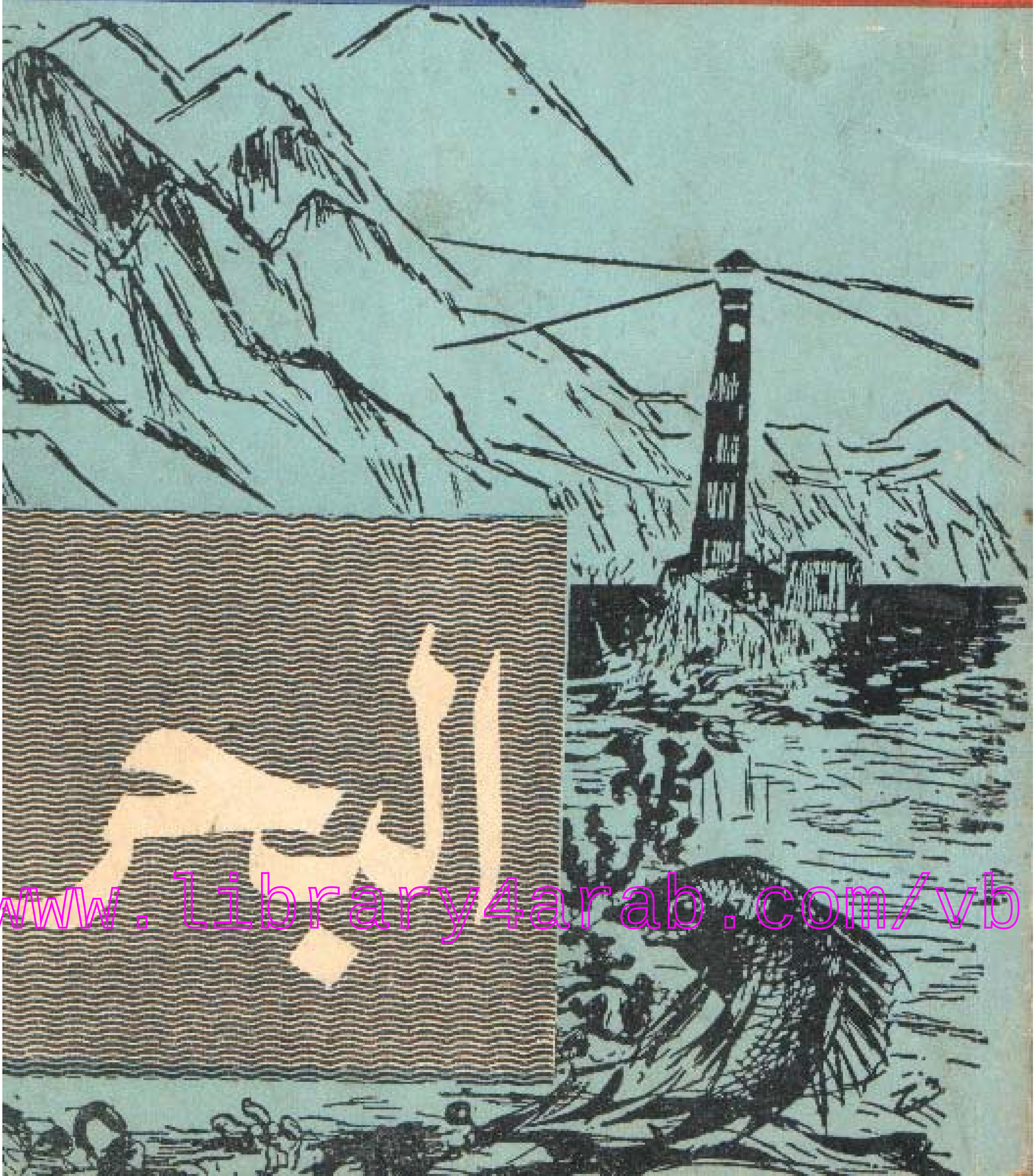
فتحي غانم

كتاب الجمهورية

العدد ١٣



البحر

www.library4arab.com/vb

كتاب الجمهورية

يصدر عن دار الجمهورية للصحافة

العدد الثالث عشر
أول فبراير ١٩٧٠

www.library4arab.com/vb

البحر

بقلم: فتحى غانم

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

١

هناك وسط مياه البحر الاحمر بالقرب من الشاطىء السودانى جنوبا يعيش ثلاثة مصريين فوق جزيرة من المرجان ليس فيهازرع ولا طعام ولا ماء ، ولا تقع أبصارهم على أرض ، فهم لا يرون الشاطىء المصرى غربا ولا الشاطىء السعودى شرقا ، ولاالشاطىء السودانى جنوبا ، وليست لديهم وسيلة للمواصلات ، ولا يستطيعون العوم فى الماء لان وحوش البحر المفترسة تحوم حولهم .. القرش ذو المنشار الذى يبلغ طوله مترا يبتر به كل من يراه أمامه ويلتهمه ، أو القرش ذو المطرقة الكبيرة ، كأنها فأس خرافى يمزق أشلاء كل ما يهوى عليه .

www.library4arab.com/vb

وحتى القارب الصغير لا يملكونه ، والسفن الكبيرةلاتستطيع الاقتراب منهم ، لان الجزيرة المرجانية خطر داهم على السفن ،

وأشد المراكب صلابة تتمزق فى الحال ، ويشقها المرجان بنفس السهولة التى يشق بها حد الموسى ورقة مبللة بالماء .

وتشبيه الموسى والورقة المبللة بالماء ليس من عندى فقد قاله لى قبطان السفينة فى أثناء رحلتنا الى تلك الجزيرة المرجانية الخطرة .

لقد مضى على المصريين الثلاثة المعزولين فى تلك الجزيرة أربعون يوما منذ أن زارتهم السفينة لآخر مرة ، وتركت لهم بعض الطعام والماء ، ولابد أن تسرع اليهم السفينة من جديد بعد أن أوشك تموينهم أن يفرغ ، وما من حيلة لديهم للاتصال بأحد ، فليست لديهم أجهزة للاسلكى يستخدمونها فى طلب الاغاثة ..

هؤلاء المصريون الثلاثة ليسوا معتقلين فى تلك الجزيرة ، وليسوا من الرهبان الذين يعبدون الله فى عزلة تامة ، وليسوا من العلماء الذين يقومون بأبحاث سرية فى عرض البحر ، وليسوا آخر الأمر مجانين فقدوا عقولهم .. انهم ثلاثة رجال بسطاء عاديين ، لا أحد يحس بهم ، ولا هالة من البطولة تحوط بهم .

انهم ثلاثة من موظفى الحكومة المصرية يقومون بالعناية بفنار فوق هذه الرقعة الصغيرة من المرجان ، فى حجم حجرة كبيرة فى قصر ، كل همهم هو أن يظل الفنار مضيئا طوال الليل، يرسل شعاعه الى المراكب ليحذرها ولينبهها الى ضرورة الابتعاد عنهم .

* * *

ما كادت السفينة تبعد مسافة مترين عن مرساها بميناء السويس حتى سمعت لغة غريبة تصدر من القبطان ويرددها البحارة .. ولا أفهم منها شيئا ..

خمس درجات سنجق .. عشرون سنجق .. ضـــمان فى النص .. سقالة الاباندا .

وكان لابد أن أفهم ما يقال ، فأمامى عشرة أيام كامـــلة فى البحر مع قبطان السفينة وضباطها وبحارتها ، وكنت قد سمعت قبل قيام السفينة خادم القبطان وهو يتقدم منه ويقول فى صوت وقور مؤدب :

الفطور « ألسطة » ـ بكسر اللام ـ يا أفندم .

والتفت الى القبطان قائلا :

ـ الفطور السطة ..

ولم أفهم ماذا يقصد ، وهل يعنى أن شيئا ما حدث لطعام الافطار ، ثم تبعت القبطان فوجدت الافطار معدا ، ولما فرغنا منه ذهب القبطان الى برج القيادة ، وارتفع صوت بحار من مقـــدم السفينة يصيح :

ـ السطة يا أفندم ..

وتحدث القبطان فى بوق يوصل الى غرفة القيادة وتـــكلم بلهجة المتسائل :

ـ « ألسطة » ..

وصاح صوت آخر يبدو أنه صـــادر من مكان الآلات وكرر نفس الكلمة :

ـ « ألسطة » ..

ثم أصدر القبطان أوامره وتحركت السفينة ولم أكن فى حاجة الى أى ذكاء كى أعرف أن كلمة جاهز أو معد معناها فى لغـــة البحر « ألسطة » ..

وتعلمت القاموس البحرى ..

سنجق : يمين .

سقالة : شمال .

بيرة : اسحب .

أجانتا : امسك .

الضمان : الدفة .

البروة : مقدم السفينة .

الاش : مؤخر السفينة .

حتى كلمة « الاباندا » التى كنت أظنها اسما طريفا لا معنى له عندما أسمع المعلم سلطان يصيح فى رواية سمارة « يا واد يا الاباندا » وجدت أنها تعنى فى القاموس البحرى .. الى الآخر، أو حتى النهاية .

وكلمات البحر تتسرب الى البر ، فتصبح أسماء لاشخاص ، أو تستعمل كوسيلة للتعبير .. فى السويس مثلا كنت أركب سيارة وقف بها السائق أمام مضخة بنزين ليملأ خزان سيارته ، ولما انتهى العامل من ملء السيارة هتف بالسائق :

ـ السطة اللنش .

وفى الطريق خارج الميناء ، تابعت عينا الشاب ، الفتاة التى تسير هناك ، وهتف بصوت مرح :

ـ يا سلام على الاش .

وراجعوا القاموس البحرى لتفهموا المعنى .

٢

مضت السفينة تخترق الميناء المزدحم بالمراكب المثقلة بالبترول تنتظر موعد دخولها قناة السويس ، وظهرت الجبال الحمراء تحف بالخليج على شاطىء مصر الايمن وشاطىء سيناء الايسر ، وسألت :

ـ هل لون الجبال هو سبب تسمية البحر .. بالبحر الاحمر .

وهز ضابط بحرى كتفه متسائلا بدوره :

ـ ولماذا سمى البحر الابيض بالابيض والبحر الاسود بالاسود .

ولم يعرف احد الاجابة على هذه التساؤلات ..

وغرقنا فى صمت تأمل هادىء .

وسرح القبطان ببصره فى الماء وقال :

ــ كل ما أعلمه ، هو أن البحر عدوى .

وفاجأتنى هذه الكلمة ، فالبحر هادىء وديع ، ولا شىءيبدو خطيرا فى مياهه الساكنة .. ربما كان الخطر فى تلك المراكبالتى تطفو على السطح ، وتنقل البترول الذى يحرك الاطماع ويلهب الحروب ويثير المعارك .

ربما كان الخطر عبر تلك الجبال فى سـيناء ، حيث يكمن خلفها الصهاينة ، ربما كان الخطر فى شواطىء مصر ، ومياه هذا البحر الذى يربط بين الغرب والشرق ، بين الشمال والجنوب ، بين الاستعمار وضحاياه ، بين البرودة والحرارة ، بين كـل شىء وكل شىء فى هذا العالم العريض .

ولكن قبطان المركب كان يرى الخطر فى شىء آخـر لم أكن أتوقعه .. كنت أنظر الى المياه كمتعة جديدة مريحة ، وكان ينظر اليها فى قلق ويضـع منظاره المكبر على عينيه حتى فى الظـلام الدامس الذى لا يبين منه شىء . فالجزر المرجانية كثيرة فى هذا البحر ، وهى تختبىء تحت الماء ، قد تظهر أحيانا فى لون خيط أبيض رفيع كأنها زبد موج ، وقد تظهر فى لون مياه خضراءتختلف عن مياه البحر الزرقاء ، وما زالت المراكب تصطدم يوما بعد يوم بهذه الشعب المرجانية فتتمزق ، وتتعلق بها فلا تغرق فى الماء، ويظل حطامها بارزا فوق سطح الماء ، وتتحول المركب الى ضريح، كأنها قديس من أولياء الله الصالحين يهدى فى مأسـاته ربابنة البحر الى الطريق السليم ، ويجنبهم الطريق الخطر .

ان القبطان فى البحر الاحمر لا ينام .. اذا رفع المنظار المـكبر عن عينيه ، أسرع الى البارومتر يقرأ ضغط الهواء ، لانه يتوقع

تقلب الجو في أية لحظة ، ثم ينظر الى ساعته ليعرف موعد تغير تيار الماء . كل ساعات قليلة يتجه الماء من الجنوب الى الشمال، أو من الشمال الى الجنوب ..

ان البحرية الانجليزية تحترم هذا البحر لخطورته ، وهى تضع له تقاليد خاصة ، فلابد للقبطان الممتاز أن يقضى فترة من حياته في البحر الاحمر قبل أن يحصل على شهادته ، واذا ما اقتربت المراكب الانجليزية من البحر الاحمر ، خلع الجميع ملابسهم ، وارتدوا زيا خاصا يستقبلون به هذا البحر ، يتكون الزى من البنطلون الازرق والقميص الابيض وحزام عريض أحمر يلتف حول الخصر ، يشبه أحزمة القراصنة في الافلام الملونة .



www.library4arab.com/vb

٣

وتأتى ساعات الراحة رغم كل شيء ، ويجلس البحارة يتحدثون ..

كان جماعة من البحارة يجلسون فى شبه حلقة حول رجل أخرس يلبس بدلة العمال الزرقاء ، وعلى رأسه بيريه أزرق . وكان الأخرس أفصحهم فى الحديث ، انه لا يسمع ولكنه يفهم حركات فم محدثه وشفتيه ، ويتكلم بيديه ، وبلسانه أيضا ، فيخرج الكلام كأنه صادر من طفل فى الثانية من عمره .

كان الأخرس يروى قصة جنسية مثيرة ، تتلوها قصة أشد منها اثارة ، والجميع من حوله ينصتون ثم ينفجرون فجأة فى ضحك صاخب ، وتعليقات ساخرة تنال من الاخرس ، فيرد عليهم بسخرية أشد منها لذعا وجرأة .

ولا يمكننى أن أروى ما سمعت من قصص ، كل مااستطيعه هو الكلام عن مغزاها ، فقد كان لها مغزى .

انها تدور حول الفقر الشديد ، حول الحيـــاة بلا قرش فى الجيب ، وبلا طعام سائغ يؤكل ، وأبطال القصص جميعايتعرضون الى أكل الملوخية العفنـــة التى علتها طبقة من الرغاوى تشبه الصابون ، أو يعانون من الافلاس الذى يجعلهم يقضـــون أياما يأكلون بقايا الطعام مع القطط والكلاب ، ثم تزول هذه التعاسة ، وتبدو اشراقة الامل ، وتنفرج الازمة فى لحظات سعيدة يقضيها هذا الفقير فى علاقة جنسية مع امرأة أو غلام .

ويتحـدث البحارة عن الشذوذ الجنسى ببســاطة ، وكشىء واقع لا شذوذ فيه ، وهم يضحكون فى سعادة محمومة عنـدما تبلغ القصة مرحلتها أو ذروتها الجنسية ، ولكنهم يناقشـون فى نهاية الامر مشكلة الفقر بطريقة فريدة .

قال أحد البحارة وهو يفكر جادا فى مشكلة بطل القصـــة الفقير الذى لا يجد الطعام :

ـ لازم يصدر أمر يموتوا كل الكلاب والقطط اللى فى البلد .

وتساءل آخر :

ـ ليه ؟

فأجاب البحار الاول بحكمة :

ـ علشان يوفروا أكل للناس الغلابة دول .

وتدخل بحار عجوز فى الحديث :

ـ مش حرام يموتوا الـــكلاب والقطط ، ربنـا خلقهم زى بنى آدم .

واحتار البحار الاول ، وتردد امام كلمة ربنا ، ثم قال أخيرا :

ـ بنى آدم ربنا فضلهم على الجميع ..

وعاد البحار العجوز يقول :

ـ بلحمه حرام زى لحمة الحيوانات ..

وصاح بحار آخر :

ـ يعنى بنى آدم ما يكلش ويوكل القطط والكلاب ..

ودارت المناقشة فى حلقة مفرغة ، حتى أصابهم الملل،وتدخل الاخرس بقصة جديدة ..

وكانوا يضحكون هذه المرة ، عندما مر بهم « عنتر » وهو رئيسهم ، يشبه القراصنة كما يصفونهم فى روايات الجيب ، وكما يظهرون على الشاشة ، وقد فاجأنى القبطان بنفس هذه الملاحظة ، وهو يحدثنى عن عنتر ، ويقول أنه لو ترك لحيته تنمو قليلا لكان القرصان المثالى فى نظر هوليود .

وجه عريض مفلطح ، كأنه اصطدم طوال حياته بالرياح العاصفة ، وتبدو فى غضون وجهه الحيوية الشابة مختلطة بآثار التقدم فى السن .. وجهه متناقض ، عبوس ، ضاحك ، خشن، رقيق فيه آثار حياة المغامرة مع النساء والشراب ، وفيه آثار حياة البحر الصحية النشيطة القوية .. عيناه ضيقتان ماكرتان، وصوته يفضح ضياع أسنانه ، ولكنه يعرف كيف يزعق ويسب ، ويحمد الله ويشكره .

ونبه عنتر البحارة الى وجودى ، والى ضرورة التزامهم الادب أمام رجل غريب .. فهذه هى حجته التى استخدمها لاسكاتهم ..

وصمت البحارة قليلا حتى ابتعد عنتر ، ثم صاح احدهم ساخرا :

ـ ياللا نتكلم عن بريطانيا عملت ايه يا جماعة .

وانفجروا ضاحكين ..

ولكنهم كفوا عن حديثهم الاول وبدأوا يتكلمون عن حياتهم . وإذا كانت كلمات البحر تتسرب الى البر ، كذلك كلمات البر .. كلمات الفلاحين وتعبيراتهم التى خرجت من مجتمــــع الارض ، كانت ذائعة ومنتشرة فى حديث البحر .. « موت يا حمار على ما يجيلك العليق » ، « كنت مرتاح أربعة وعشرين قراط » . ولكن الكلمات تخرج سريعة ، حادة ، كأنها طلقات ، وسمعت أحد البحارة يصف شخصا يعرفه بهذه الكلمات المختصرة « عنــده لقمة يأكلها وقرش فى جيبه » ، وكان يبدى دهشته لان مرتبه ثلاثون جنيها فى الشهر ومع ذلك غارق فى الديون .

وتساءل آخر فى دهشة :

ـ واحد ماهيته ٣٠ جنيه ياكل بيهم كلهم بط ..

ثم أردف غير مصدق :

ـ ازاى يبقى مديون ؟ !

٤

في الجانب الآخر من السفينة ، كان أحد ضباطها يروى لزملائه مغامرة له في نابلي .

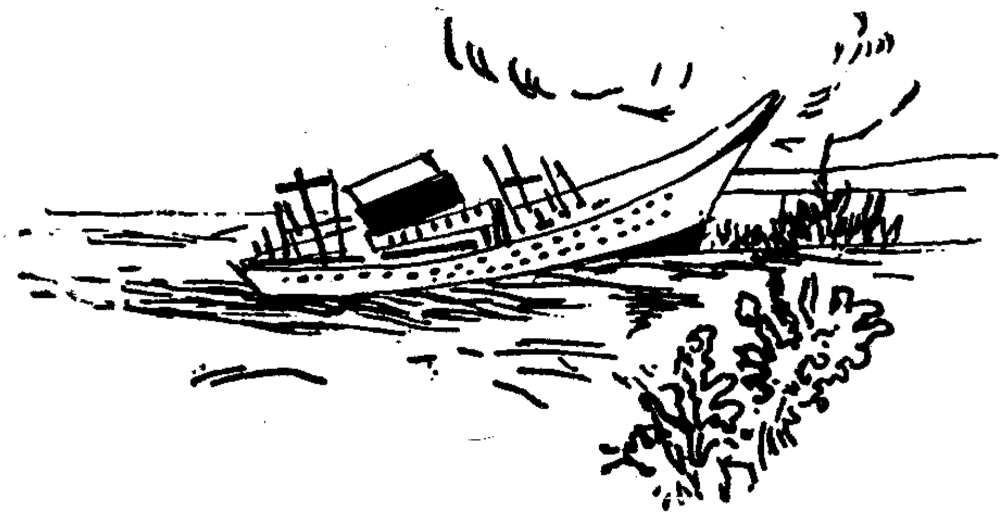
قابلته بمجرد أن هبط من المركب امرأة دعته الى بيتها ،ونظر اليها مترددا ، ثم قال لها أنه لا يملك نقودا .

وتظاهرت المرأة الايطالية ، أنها لا تريد شيئا منه ، وحدثته في أشياء كثيرة . حتى عرفت أنه متزوج وله ولد صغير ،فطلبت منه أن يطلعها على صورة ابنه . وبسرعة أخرج لها محفظته وفتحها ليخرج منها الصورة .

وهتف المرأة في ظفر :

ـ ها هي النقود .

واهتم المستمعون بمعرفة نهاية القصة ، وخاب أملهم عندما علموا أنه لم يفقد نقوده ولا المحفظة . ونظروا اليه وكأنه فقد كل شيء ..



www.library4arab.com/vb

٥

وليست القصص والحواديت هى كل شىء فى لحظات الراحة فهناك الصيد أيضا .

وكانت السفينة تقف فى موانى كثيرة ، وعند فنارات عديدة فى طريقها الى الثلاثة المعزولين وسط البحر . وكلما وقفت السفينة ، رأيت دائما من يسرع ومعه خيوطه وسناراته الى « الاش » ، وهو مؤخر السفينة ، ليصطاد السمك .

وتدوى صيحة تنبه الى أن القرش المفترس سيحوم حول « الاش » ويسرع كل من ليس لديه عمل ليساهم فى صيده .

ان اصطياد « القرش » يعتبر انتصارا حقيقيا يدعو الى الفخر لانه وحش تسبب فى قتل الكثيرين أو تشويههم بأن ينهش منهم

ساقا أو ذراعا . انه ثأر دفين بين كل من يركب البحر ، وهـذا العدو المتربص فى الماء ، الذى يتبع السفينة أميالا بعيدة ، فى انتظار أن يقع منها أى شىء ، فضلات طعام ، أو مخلوق بشرى ، وحبذا لو غرقت السفينة فيصبح كل من فيها وليمة فاخرة للقرش ..

وألقوا بسنارة كبيرة فيها سمكة كبيرة كطعم للقرش ، الذى حام حولها دون أن يقترب منها ، كأنه يفكر فى شىء .

وفوجئت بمنظر عجيب ما كنت أصدقه ، لولا انى رأيته بعينى .. كانت هناك ثلاث سمكات صغيرات ، سود ، فى وسطهن خط أزرق بديع ، يركبن فوق القرش ، الذى يروح ويجىء وينتفض فى عصبية ، والسمكات الصغيرات لا تتحرك من فوقه .

وقالوا لى ، ان هذه السمكات تلتصق بالقرش ، كما تلتصق البراغيث بجسم الانسان ولا يستطيع القـرش أن ينفضها عن جسـمه أو يتخلص منها ، وهى تأكل من الطعام الذى يهاجمه ويفترسه القرش .

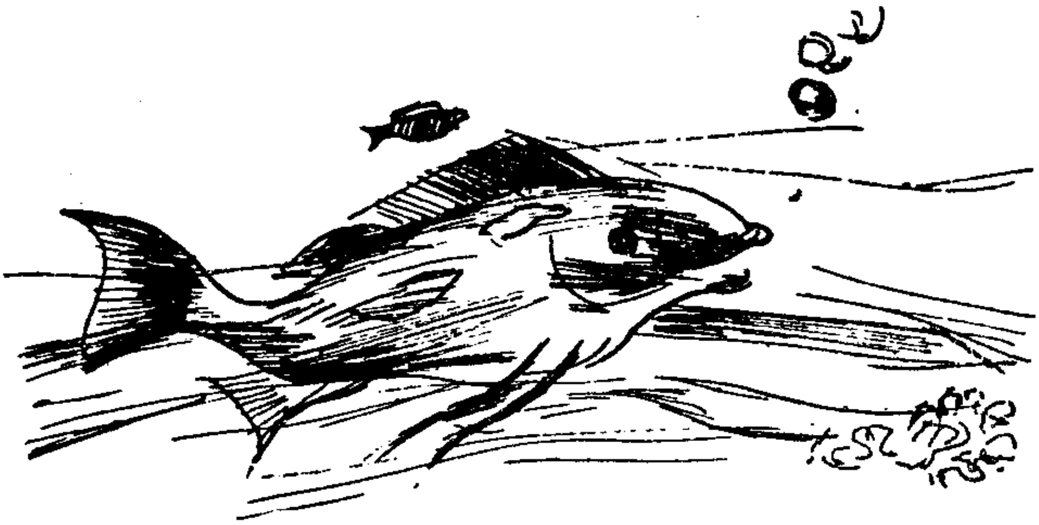
وأحسست أن « القرش » مسكين ، وفوقه هذه السـمكات تعذبه ، وما أن أبديت هذه الملاحظة لمن حولى ، حتى قال لى أحد الوقادين الذين خرجوا من داخل السفينة ليستنشق الهـواء ، ويشارك فى اصطياد القرش ، ان هذا القـرش الرهيب المخيف تستطيع أن تقضى عليه سمكة صغيرة طولها بوصـتان ، ولونها أحمر ، ولها فى كل جانب ناب حاد قاطع كالسيف ، وتمرق هذه السمكة الصغيرة فى سرعة كبيرة بجانب القرش وتمر على جلده، بنابها ، فتشقه وتمزقه ، ويسمى البحارة هذه السمكة الحمراء.. شرطة السمك .

وأزعجتنى القصص التى سمعتها عن « القرش » ..

وتساءلت كيف يجرؤ أى انسان على النزول الى الماء وفيه هذا الحيوان الرهيب ..

ولكن الانسان يستطيع فعلا أن يهبط الى الماء غير مسلح بشىء ، ويجعل القرش ينفر منه ، هذا اذا كان أسود البشرة ، لان القرش يخاف من الدرفيل وهو أسود اللون ، وهو يظن أن كل انسان أسود البشرة ، يعوم فى البحر ، درفيل ، فيهرب منه فزعا .

القرش عدو الرجل الابيض ونصير الزنوج .



www.library4arab.com/vb

٦

كان لابد للسفينة أن تتحرك قبل أن نصطاد القرش .. الذى كان مشغولا ببراغيثه الثـــلاثة ، يحاول عبثا أن يتخلص منها . وكنا نحن مشغولين بثلاثة من البشر يجب أن نلحق بهم فى الموعد المحدد ، قبل أن ينفد ما معهم من ماء وطعام .

وقال لى أحد البحارة مفسرا ، اننا لابد أن ننتهز فرصــة هدوء البحر لنصل اليهم سريعا . فكثيرا ما تكون منطقتهم مليئة بالرياح الشديدة والأمواج المرتفعة ويستحيل علينا ارسال قارب من السفينة يحمل اليهم تموينهم .

وقلت له :

ـ مساكين .. يعنى عايشين فى عزلة تامة ..

وأجاب الرجل :

– تصور أنهم لم يعرفوا مطلقا بحوادث العدوان على بورسعيد .

واستأنف يقول :

– فى أحد الايام فوجئوا بالبحر تختفى منه السفن التى تعبر عند الافق ، ومرت الايام وقد انقطعت عنهم السفينة التى تمونهم، وبدأت مؤونتهم تفرغ ، ثم جاء عصر يوم اقتربت فيه بارجة تحمل العلم الفرنسى ، ووقفت على مقربة من جزيرتهم .

وفوجىء رجال الفنار الثلاثة بالبارجة التى ترفع العلم الفرنسى وترسل اليهم قاربا يحمل بعض البحارة والضباط .

واختلطت الدهشة فى نفوسهم بالفرح بمرأى البارجة ، وقدوم بحارتها وضباطها اليهم . لقد مضت الاسابيع وهم لا يرون سفينة فى الافق ، وكان اختفاء السفن أمرا عجيبا فى حاجة الى تفسير ، وهم لا يملكون وسيلة للاتصال بمصر ، أوأى مكان آخر ليكشفوا عن الغموض المريب الذى ساد البحر .

ان أوروبا كلها تعتمد فى تجارتها وبترولها على تلك السفن التى تشق عباب البحر الاحمر متجهة الى قنال السويس أو قادمة منها .. فماذا حدث حتى تقف تجارة العالم ؟ ماهو ذلك الشىء الذى وقع ولابد أن يكون خطيرا ، حتى جعل السفن تفر من البحر وتختفى منه .

ان سفينة التموين المصرية لم تأت فى موعدها المحدد الى الفنار لتمونه ، ولتحمل اليه أخبار مصر ، ولتأتى برجال جدد يأخذون مكان هؤلاء الثلاثة الذين انقطعوا عن العالم ، وتحملوا الوحدة القاسية ، والعزلة الرهيبة ، من أجل أن يظل الفنار مضيئا يرسل شعاع الهداية الى السفن المارة من بعيد .

نفذت الخضراوات من الفنار ، واعتمدوا نهائيا على مايصطادونه من سمك ، وبدأ الماء ينفد أيضا ، فهم يشربون من الصهريج الاخير للماء الحلو ، وانتظروا يوما بعد يوم وصول سفينة التموين ظنا منهم أنها تأخرت ولكنها سوف تأتى فى وقت قريب .. ولكن الاسابيع مرت والسفينة لم تجىء ، واختفت بقية السفن من البحر .

وبدأ رجال الفنار يستعملون مياه البحر فى الاغتسال ، وفى غسل الصحون ، ولا يقربون الماء الحلو حتى يستبد بهم العطش ، ومع ذلك كان الماء ينفد سريعا وهم لا يملكون سوى الانتظار .. انتظار أى شىء .

وجاءت البارجة الفرنسية قبيل الغروب وتبادل رجال الفنار التلسكوب ينظرون به فى دهشة وفرح . وأسرعوا الى المرسى يستقبلون القارب القادم اليهم .

ولم ينتبه رجال الفنار الى أهمية السلاح الذى فى يد البحارة الفرنسيين ، ولم يلاحظوا القلق والحذر الذى بدا عليهم ، وهم يصعدون من القارب الى مرسى الفنار .. لم يكن البحارة القادمون يعنون شيئا بالنسبة الى رجال الفنار الثلاثة ، الا أنهم بشر يستطيعون أخذ المؤونة الكافية لهم منهم ، ثم الحديث معهم لمعرفة السر فى اختفاء السفن من عرض البحر .

وما كاد الحديث يتصل بين رجال الفنار والفرنسيين حتى زاد الامر غموضا .

سألوا الفرنسيين عن سر اختفاء السفن ، فهزوا أكتافهم وقالوا « لا ندرى » ، سألوهم ، هل حدث شىء ما فى العالم ؟ هل قامت حرب ، هل هبت عاصفة هوجاء أغرقت السفن .. كل السفن .. فى البحر ، هل انفجرت براكين ووقعت كوارث ، أو تلوثت مياه البحر بالغبار الذرى . ماهى أخبار بلدنا مصر ؟

وهز الفرنسيون أكتافهم من جديد ، وقالوا « لا ندرى » .

ويئس رجال الفنار تماما من معـــرفة اى شىء ، ولم يبق أمامهم الآن إلا أن يطلبوا الخروتة والماء ، وقبل الفرنسيون أن يرسلوهما اليهم ، وعادوا الى قاربهم صامتين ..

لم يعرف رجال الفنار فى ذلك الوقت ، ان الفرنســيين كانوا خائفين منهم ، وأن البارجة الفرنسية بمدافعها الثقيلة وبحارتها المدججين بالسلاح ماكانوا ليجرؤوا على ان يبوحوا بسرهم أمــام المصريين الثلاثة .. كانوا يدركون أن اللحظة التى سيعرف فيهــا هؤلاء المصريون أن الاســطولين الفرنسى والانجليزى يحاصران الشواطىء المصرية وأن هذه البارجة فى حرب مــع مصر .. فى نفس اللحظة كانت شعلة الفنار ستنطفىء ، ويسود البحر الظلام الدامس فى الليل .. حتى ولو اضطر رجال الفنار الى التضحية بحياتهم من أجل ذلك .

فضل الفرنسيون السلامة ، ومضوا لحالهم ، وقــد اطمأنوا الى أن الفنار سيواصل ارسال أضوائه ليبدد ظلمات البحر .. وأقفر البحر من جديد ، والحيرة تستبد برجال الفنار ، وأعصابهم تتمزق ، وأفكارهم تزداد اضطرابا . انهم يمرون بتجربةأقسى من تلك التى مر بها روبنسون كروزو فى جزيرته الخيالية .. جزيرة روبنسون كانت كبيرة ، فيهــا غابات وأنهار وأراض تمتــد على مدى البصر . وأما هذه الجزيرة الواقعية فصغيرة فى حجم حجرة كبيرة ، لا ماء فيها ولا أنهار ولا غابات . انها جزيرة من المرجان الذى برز من قاع البحر كجذع شجرة سميكة ، بنى فوقه الفنار. روبنسون كان يستطيع أن يجرى ويصطاد ويزرع ويقلع ويعيش ، أما هؤلاء الثلاثة فنزهتهم الوحيدة هى صعود سلالم الفنار والهبوط منها ، ولا شىء بعد ذلك الا صيد السمك .

ان الطعام والماء لا ينفدان وحدهما فوق هذه الجزيرة ، الأعصاب أيضا تفنى وتذوب . وكان انقطاع المراكب من البحر ، وفقدان الصلة بأبناء مصر يعجلان بذوبان الأعصاب وانهيارها ، ويسرعان بالرجال الثلاثة الى المصير المحتوم .. الجنون .

ومر أكثر من شهر بعد رؤيتهم للبارجة الفرنسية ، وهم يحلقون فى الأفق ساعات طويلة فى انتظار شبح أية سفينة .

وظهرت فجأة فى الافق سفينة تحمل العلم اليابانى . وأسرع أحد رجال الفنار يرسل اليها أضواء يستغيث بها .

وتوقفت السفينة اليابانية ، وأرسلت قاربا الى الفنار .

وصعد اليابانيون من القارب الى المرسى ، لتستقبلهم أعصاب ثائرة تسأل فى الحاح .

وتحدث أحد اليابانيين بعد أن فكر بسرعة فى الموقف . أدرك أنه أمام رجال معزولين لا يعرفون شيئا عما يحدث فى بلدهم ، وأوشك أن يروى لهم الحقيقة ، ثم راجع نفسه وفكر فيما يحدث لو أنهم اطفأوا الفنار .

لم يشك اليابانى فى وطنيتهم ، وفى أنهم لن يسمحوا للنور الذى يرسلونه فى الظلام ، أن يهدى السفن المعادية فى اقترابها من سواحل بلدهم .

ووجد اليابانى أن من مصلحته الخاصة أن يبقى النور ساطعا فى ظلام البحر . فأجاب مراوغا :

ــ هناك بعض متاعب فى مصر .

وصاح الثلاثة فى نفس واحد :

ــ أية متاعب ؟

ورفض اليابانى أن يزيد حرفا واحدا على ماقاله ، وجعل يكرر :

ـ متاعب .. لا أدرى .. متاعب !

وانصرف اليابانى مع زملائه وأرسل بعض المؤونة الى الفنار .

واشتدت الازمة فى نفوس الثلاثة .. استراحوا قليلا أول الامر عندما عرفوا سبب انقطاع السفن ، ثم زاد اضطرابهم ، وساءت حالتهم عما كانت عليه ، بعد أن تأكدوا أن هناك متاعب فى بلدهم .. أية متاعب .. انهم لا يعرفون .. هل تمس عائلاتهم وأولادهم .. لا شك أنها متاعب خطيرة ومروعة ، حتى تؤثر على سير الملاحة العالمية ، لابد أنها أحداث جسيمة مثيرة .. ولكن أية متاعب ، ما لونها .. ؟ ما نوعها ؟

انهم لا يدرون ..

ان أحدا من البشر لايستطيع احتمال هذا الارهاق العصبى . ان العزلة والمسافة البعيدة لاتنسينا الاهل والوطن ، اننا فى عزلتنا تجتر الذكريات ، ونعيش بأمل العودة ، ونتحمل من أجل لحظة اللقاء .. وها هى الكلمات القليلة التى ذكرها اليابانى ، تحطم الخيال ، وتقسو على الامل .. وتفسد التفكير فى اللقاء ، وما من وسيلة للعزاء ، وما من قدرة على التصرف ، وما من طريقة للخلاص .

المصير الوحيد الذى بقى هو .. الجنون !

٧

كانوا قد شارفوا على الجنون فعلا ، عندما ظهرت السفينة رافعة علم مصر ..

لم يصدقوا انها سفينة ، ظنوها وهما يطوف بخيالهم ، فما أكثر المرات التى صاح فيها أحدهم بأعلى صوته ، وجرى مندفعا الى المرسى يهتف أن « عايدة » قادمة ويجرى زميلاه وراءه ، ليتبينوا أن لا شىء فى الافق الصامت ، ويقفوا جامدين ذاهلين لا تترك أعينهم خط الأفق ، حتى يعلو الموج كالجبال ، وتشتد الرياح فتوشك أن تقتلعهم ، فيضطرون الى العودة الى داخل البناء ، لا ينبس واحد منهم بكلمة .

ولكن الوهم هذه المرة ، كان يقترب بسرعة من الجزيرة ، والعلم الاخضر يتضح بهلاله ونجومه فوق السارية .. انه ليس

وهما .. انه سفينة ، وقارب يسرع منها الى المـرسى ومصريون لا فرنسيون ولا يابانيون ، يصعدون ، وقبلات ، ودموع ،وكلمات مصرية صميمة ، وماء حلو ، ماء النيل ، وطعام فيه ملوخية وبامية ناشفة ، وخطابات من الاهل ، واخبار عن حرب خاضـها الوطن وعدوان ثلاثى .

وفى ثوان انقشعت غمامة الجنون ، وعرف هؤلاء الثـلاثة معنى جديدا للسعادة لم يحسه انسان فى هذه الدنيا من قبل .

٨

ان قصة هؤلاء الثـــلاثة ، أصبحت أســـطورة بين رجال الفنارات .

ومنذ أن سمعت بطرف من هذه القصة وأنا على ظهر سفينتنا في طريقنا الى نفس الفنار وأنا لا أكف عن سؤال كل من أقابله لأعرف المزيد مما وقع .

وجمعت معلوماتي من كل فنار نقف لتموينه في طريقنا الى هذا الفنار الاخير .

وقد وقفنا عند ستة فنارات في طريقنا ، وقفنا عند فنـارات ابو الدرج ، والزعفرانة ، ورأس غارب ، والاشرفي ، وشدوان ، والاخوين .. وأخيرا الفنار الذي وقعت فيه تلك الاحداث .. فنار ابو كيزان ..

وليست الحياة معـــزولة تماما فى أبو الدرج والزعفرانة ، ورأس غارب ، فهناك طريق للسيارات بطول الشاطىء ينقل الناس والاخبار والسلع .

وفنار الاشرفى فوق جزيرة مرجانية صغيرة كفنار أبو كيزان ، ولكنه داخل خليج السويس ، ويستطيع رجاله أن يأنسوا برؤية الجبال الحمراء الممتدة .

وفنار شدوان فوق جزيرة طولها عشرة أميـــال وقريبة من ميناء الفردقة . وكثيرا ما يأتى الصـــيادون من الفردقة الى شدوان أو الاشرفى لصيد سمك المرجان .

أما فنـــارا الاخوين وأبى كيزان ، فهما فقط اللذان يثيران الدهشة والتساؤل حول حياة رجالهما . فالاثنان جنـــوب خليج السويس ، ويقعان وسط البحر الكبير ، وما من فرصـــة لدى سكانهما للاتصال بأحد ، حتى تزورهما السفينة فى موعـــدها المرتقب .

ولم أستطع للاسف مقابلة الثلاثة الذين كانوا فى فنـــار أبو كيزان وانعزلوا عن مصر والعالم أيام العدوان . وكنت أريد معرفة تفاصيل حياتهم دقيقة بدقيقة ، ويوما بيوم ، وهم يمرون بمحنتهم .. ولكنى علمت أنهم رحلوا عن أبى كيزان وجاء ثلاثة غيرهم ، هم الذين نسرع اليهم لنجدتهم فى هذه الرحلة .



٩

يروون فى جزيرة شدوان عن غزلان شاردة داخل الجـــزيرة القفراء . جاء بالغزلان فاروق أيام كان ملكا ، وجعلهـــا تستوطن الجزيرة ، وأمر المــراكب بأن تشرف عـــــلى تموينها بالماء الحلو والطعام .

وأقام فاروق جهازا اداريا ضخما للاشراف على الغـــزلان ، فاذا ماتت احدى الغزلان ، فصلوا راسها عن جسدها ،وارسلوها الى فاروق ، ليتأكد من أن أحدا لم يأكلها .

وكانت الغزلان تموت بكثرة ، فهى لا تتحمـــــل الحياة فى الجزيرة الجرداء بلا ماء صالح للشراب ، وفاروق قد ركب راسه، مصمم على أن تملا الغزلان الجزيرة التى سحرته لكثرة وجـــود الاستاكوزا فى مياهها ، وكان الصيادون يصطادون الاســـتاكوزا

وينقلونها الى الفردقة فتحملها الطائرات الى فاروق .

وذهب فاروق ، وبقيت الغزلان ، أكل بعضها رجال الفنار ، وهرب بعضها الى داخل الجزيرة الموحشة ، وظنوا أنها ماتت .

وأخيرا اكتشف رجال الفنار أن الغـزلان ما زالت حية .. رأوا اثنتين تتهاديان وتمرحان فوق هضبة ، وما أن لمحتا رجال الفنار حتى أطلقتا سيقانهما الريح واختفتا ..

ويقول رجال الفنار فى شـدوان ، أن الغزلان تشم رائحـة الناس من مسافة بعيدة ، وأنها تختبىء فى مكان مجهول داخـل تلك الجزيرة .. فى مكان لم تطأه قدم انسان من قبل .

كيف تأكل الغزلان اليوم ؟

يقولون أنها لابد قد وجدت طعاما والا لما عاشت كل هـذه السنوات منذ ذهاب فاروق .

كيف تشرب ؟

هل اكتشفت نهرا أو بئرا لمياه الشرب ؟

انه لغز لم يعرف حله أحد حتى اليوم .

احد المتدينين يقول ان الله يرزق هذه الحيوانات المسكينة ، التى القت بها المقادير فى هذا المكان السحيق .

١٠

جنوبى جزيرة شدوان ، التى تواجه رأس شبه جزيرة سيناء وميناء شرم الشيخ .. جنوبها بثمانين ميلا بحريا ، تقع جزيرة الاخوين فى عرض البحر الاحمر .

انها جزيرة فى حجم حاملة الطائرات ، وفى شكلها تماما ، والفنار فوقها يشبه برج القيادة فى السفينة الحربية والىجانبها جزيرة أصغر منها .

ويروى البحارة أسطورة عن الجزيرة الكبيرة فى حجم حاملة الطائرات ، والجزيرة الاصغر منها .

يقولون انه فى الزمن القديم ، كان هناك أخوان صالحان ، قررا أن يعتزلا العالم من أجل عبادة الله ، ولجأ الأخوان الى جزيرة فى عرض البحر .

واستطاع الشيطان ان يغوى احد الاخوين ، ويؤلبه علـــى شقيقه ، وتشاحن الاخوان وتشاجرا ، ولم تكن هناك وسيلة لان ينفصلا عن بعض . فهما معزولان تماما وسط البحر فى مكان مهجور عن العالم .

ودعا الأخ الصـــالح ان يجد الله حلا لمشكلته ، وأن ينقذه من شرور أخيه .

وفجأة زلزلت الارض زلزالها ، وســـمع دوى هائل انشقت بعـــده الجزيرة الى جزيرتين .. احداهما التى فى حجم حاملة الطائرات ويسكنها الاخ الصالح ، والثانية أصغر منها ويســـكنها الاخ الطالح .

انها مجرد أسطورة لطيفة ، لايمكن أن يصدقها العقل .

ولكن البحارة يكسرون قطعة من المرجان الممتد بين الجزيرتين تحت سطح الماء ، ويشيرون الى قطعة المرجان قائلين :

ــ ان شكل المرجان هنا غير شـــكله فى أى مكان آخـــر فى البحار .

وتنظر الى المرجان فتعجب ، انه فى شكل عروق .. عروق بيضاء تشبه عروق الدم فى جسم الانسان ..

ويؤكد البحارة فى يقين قائلين :

انها عروق الاخوين ، ممتدة بينهمـــا .. بين الأخ الطبيب والاخ الشرير .. بين الصالح والطالح .. بين الملاك والشيطان .. فعلى الرغم من انفصال الجزيرتين .. لم تنفصل صـــلة الرحم وصلة الدم بين الاخوين .

ويلوحون بالمرجان كدليل علمى على الاسطورة التى يروونها ، كتأكيد عقلى مادى على المعجزة التى جاءت من السماء .

ولا أملك الا أن أعجب مما أسمع ، ويتملـــكنى الخوف .. خوف من أن أصدق الأسطورة .

١١

عندما تضيق بنا الحيـــاة فى المدينـــة ، ونحس أن زمارات السيارات ، وأصوات عجلات الترام ونداءات الباعة ، وزحمـة الناس فى الشوارع واحتشادهم فى دور السينما .. نحس أن كل هذه الأشياء توشك أن تحطم أعصابنا وتتلفها . عندئذينطلق خيالنا الى مكان قصى بعيد يسوده الهدوء والراحة والطمأنينة .

وكنت أظن أن فنار « أبى كيزان » الذى يقع فى عرض البحر الاحمر عند آخر حدود مصر فى الجنوب ، هو المكان المثالى للعزلة وشفاء الاعصاب . لا صوت هناك الا هدير الامواج وصفير الرياح وصيحات طير البحر « النورس » .. ولا مناظر سوى الافق البعيد والمياه الزرقاء والسماء وقرص الشمس بالنهار ، وقرص القمر بالليل .

كنت أظن أن الانسان لا يملك الا ان يستسلم الى الطبيعة ، ويندمج فيها ، فوق جزيرة أبى كيزان المرجانيـــة التى لا تزيد مساحتها عن حجم الحجرة الكبيرة .

ولكننى بعد أن ذهبت الى أبى كيزان ، ورايت رجال الفنـــار الثلاثة الذين يعيشون فى عـــزلة تامة ، أيقنت انى اخطأت فى ظنى ، وعرفت بالتجربة أن الانسان بطبيعته يرفض أن يعيش فى عزلة ، وانه لا شيء أقسى على الانسان فى الوجود من انفصاله عن المجتمع البشرى ، وكل ما كتبه الشعراء والقصاصـــون فى القرنين الماضيين عن الباحثين عن السعادة فى جزر نائية ، كان خرافة وخيالا محضا لا سند له فى الواقع والحياة .

ان روبنسون كروزو ما كان ليستطيع أن يعيش وحـــده ســـنوات طويلة فى جزيرة موحشـــة فى المحيط ، ولا يكفى أن يكون له خادم اسمه « جمعة » ليؤنسه ، ان واحدا أو اثنين أو ثلاثة من البشر لا يكفون لاقامة مجتمع ، والانسان بغير مجتمع كالانسان بغير طعام فيه فيتامينات ، ولو كان روبنسون كروزو شخصا حقيقيا ، وليس مجرد خيال أو رمز ، لكان انسانا شاذا ، منحرفا ، وملتاث العقل .

عندما وصلنا الى فنار أبى كيزان هبطت مع طبيب السفينة فى أول قارب اتجه الى مرسى الجزيرة .. وكنت أشعر بفضول شديد لمعرفة كيف يكون لقاؤنا بالسكان الثلاثة فى الجزيرة بعد عزلتهم الطويلة عن العالم ..

وكان اثنان منهم ينتظران وصول القارب الى المـرسى . أما الثالث فكان مختفيا عن الانظار . وما كاد القارب يصـــل حتى تقدم أحد الرجلين ، وقد أمسك بيد مرتجفة سيجارة احتـــرق معظمها .. وكانت يده ترتفع بالسيجارة الى فمه ليشـــد منها

انفاسا سريعة ، ثم ينزعها بقوة وعصبية وهو يحدق فينا . بينما وقف زميله خلفه بخطوات ، صامتا يرقبنا فى هدوء ، وقدتدلت يداه الى جانبه بلا حراك ، وفوق رأسه طاقية بيضاء .

وارتفع صوت الرجل المتقدم ، يسأل عنتر الذى يقود القارب .. هل جاء أحد ليحل مكانه ، ولعله عندما رآنى ومعى طبيب السفينة ظن ان احدنا جاء كبدل له .

وأجابه عنتر أنه ليس هناك من يحل مكانه .

وصمت الرجل برهة رفع فيها السيجارة التى بدأت تحرق اصابعه ثلاث مرات الى فمه فتلسعه فى شفتيه وهو يكرر محاولة تدخينها دون ان يفكر فى القائها والتخلص منها .

وصعدنا من القارب الى المرسى وتبادلنا التحية .. ودهشت لطريقة الرجلين فى الكلام . كان صوتهما يتأرجح بين الارتفاع والانخفاض ، كما يحدث عندما تمسك بمفتاح الصوت فى الراديو لتضبط قوة الصوت عند الدرجة المناسبة .

وأدركت على الفور أنهما لم يتكلما مدة طويلة ، وأن الواحد منهم يظن اننا أشباح وهمية وما زلنا بعيدين عنه ، فيرفع صوته ليعبر البحر والمسافة البعيدة ، ويصل بصوته الينا فى السويس او الاسكندرية .. ثم يدرك أنه يرفع صوته أكثر من اللازم ، وأننا نتحدث اليه عن قرب ونشد على يده ، فيعود ويخفض صوته الى درجة الهمس وهو لا يدرى بعد المستوى الذى يجب أن يرفع اليه صوته ليتحدث مع الناس !

وأثارت هذه الملاحظة فضولى .

كيف لا يتبادلون الحديث فى عزلتهم ؟.. كنت اظن انهذه العزلة تفرض عليهم روابط صداقة لا تنفصم ، وقد تبادلوا خلال

وحدتهم أسرارهم وذكرياتهم ، واجتروا معا تاريخ حياتهم عدة مرات ..

ولكن الواقع عكس هذا تماما !

وما كدنا نخطو داخل البناء حتى ظهر لنا فجأة الرجل الثالث .. فى الخمسين من عمره بدين أصلع .. ما كاد يسمع أصواتنا ويتبادل بضع كلمات معنا حتى صاح فى انفعال معلنا أنه لا يحتمل الضجة ، ويريد قرص اسبرين وتركنا واختفى داخل احدى الحجرات ..

ورأيت الرجل الصامت ذا الطاقية البيضاء يقف جامدا الى جوارى ، ينظر الى البحر نظرة ثابتة .. واقتربت منه لاحدثه ..

قلت له :

ــ ألا تتكلمون هنا ؟

فأجاب ولم تتحرك فيه غير شفتيه :

ــ لا ..

وعدت أسأله وأنا أتلفت حولى :

ــ ألستم أصدقاء ؟..

وكانت اجابته سريعة قاطعة :

ــ لا ..

ــ لماذا ؟..

ودون أن يلتفت الرجل الى قال وكأنه يحدث نفسه :

ــ أنا أصطاد السمك .. اصطدت سمكة التونة الكبيرة .. فتلتها .. أفلتت منى فى البحر ولكنى واثق من أنها ماتت وأكلها القرش ..

كان الرجل يتحدث وهو يكتم غيظه ، كأنه يتحدث عن عدو له .. لا سمكة اصطادها ..

وارتفع نجاة صوت الراديو عاليا ، وذهبت الى الحجرة التى ينطلق منها غناء نجاة الصغيرة .. وكان الطبيب ينظر الى الراديو وكأنه يستمع اليه بعينيه ..

لقد كان هذا الراديو معطلا أيام العدوان ، فكان سببا فى أن يجهل رجال الفنار ما حدث لبلادهم ، وأمضوا وقتا تعسا انقطعت فيه الاخبار والمؤونة عنهم وهم لا يدرون شيئا ، كأنهم يسكنون المريخ ..

وجاء الشاب العصبى فى يده سيجارة جديدة اشعلها للتو ، وطلب من الطبيب أن يفحصه لانه مريض ..

لم يتحمل المسكين صدمة بقائه فترة أخرى فى الجزيرة .. فاحمرت عيناه وامتقع وجهه ، وأحس بوطأة المرض ..

وخرجت من الحجرة لأترك الطبيب يكشف على مريضه ..

وعدت الى الرجل الصامت ذى الطاقية البيضاء حيث ما زال جامدا كالتمثال ينظر الى البحر ..

ولما أحس الرجل باقترابى منه ، عاد يقول :

ــ قتلتها ورأيت دمها الاحمر ينتشر فى الماء .. وسيشم القرش رائحة الدم وينهشها .. ويقضى عليها ..

كان يتحدث عن السمكة فى حقد !..

وسألته :

ــ هل هى سمكة كبيرة ؟..

وأجاب الرجل :

ـ انها أطول منك .. جاءت من المحيط لتضع بيضها هنا في الشعب المرجانية .. انها كبيرة ضخمة لم أر في حياتي سمكة أعظم منها .. كنت ممسكا بسنارتي هناك عند حافة الجزيرة

لاصطاد السمك ، عندما رأيتها تقترب والسمك الصغير يفر منها، ولا يجرؤ على تحديها . وكانت تنقض على الاسماك الاخرى فتمزقها اشلاء وتأكل بعضها وتترك البقايا ليأكلها القرش .. كانت الاسماك تفر من الماء الى الهواء ، تريد أن تهرب من الخطر المحدق .. وتحول سطح البحر الى زبد ابيض يعلو فوقه السمك ويهبط ، وهذه السمكة الكبيرة تنهش وتقضم وتمزق بلا رحمة.

وقررت أن اصطاد السمكة الكبيرة .. أحضرت سنارة كبيرة وضعت لها طعما من سمكة كبيرة ، وجاءت هي كالفواصة تشق الماء وأكلت الطعم والسنارة وقضمت حديدها .. وعادت تمرح في الماء لا تلوى على شي !..

وحزنت على السنارة التي فقدتها وصممت على أن اصطاد السمكة مهما كلفني ذلك .. كنت أرقبها وهي تأتي كل يوم ساعة الغروب لتطمئن على بيضها الذي تركته حتى يفقس ، وأنا أمسك بقطعة من الحديد أبرد طرفها لاجعله مدببا كرأس الحربة ، ولما فرغت من مهمتي .. انتظرتها حتى جاءت وقد أعلن مقدمها زبد الماء ، والسمك الحائر الذي يريد أن يخرج من البحر ..وأمسكت بالحربة حتى رأيتها تقترب مني وصوبت الطرف المدبب الى جسمها بكل قوتي فنفذ فيها ، ولكنها تلوت وخلصت نفسها من الحربة واندفعت بعيدا الى عرض البحر .

ولم أنم تلك الليلة ، بل لم أنم كل الليالي التالية وأنا أصنع حربة جديدة ، وهذه السمكة اللعينة تأتي كل مغرب لتفترس السمك وتطمئن على بيضها ، وتلعب أمامي ساخرة هازئة بي .

وربطت ثقلا كبيرا من الحديد الى الحربة .. حتى تنغرس كلها في لحمها ، وجاءت اللحظة الحاسمة .. وهبطت الى الماء

غير عابىء بشىء ، وقذفت الحربة مصوبا طرفها الى ظهرها ، وأنا أصرخ بأعلى صوتى .. وانغرست الحربة فى اللحم .. ورأيت الدم ينبثق من السمكة ويلوث الماء ، وجذبت الحبل المتين الذى ربطته فى الحربة .. والسمكة تجذبه بقوة هائلة فى فرارها الى عرض البحر .. كانت السمكة تجذبنى معها الى الماء ، وأنا أشدها الى بلا جدوى .. وأصرخ فيها أن تموت وانى لن أتركها .. وفى كل لحظة اندفع خطوات الى الماء ، حتى لم أعد أدرى هل أنا الصائد أم هى .. وهل أنا الذى أخرجها من الماء الى البر .. أم هى التى تجذبنى من الشاطىء الى أعماق البحر .. ولكنى اعتزمت ألا أفرط فيها لحظة واحدة ، حتى لو انتهى الامر بهلاكى ..

ولست أدرى ماذا حدث لى بعد ذلك .. أحسست كأن طوقا من الحديد يحيط بخصرى ، وأنا أصيح وأصرخ .. ويداى تتمزقان من الحبل الذى يضغط عليهما .. حتى انبثق منهما الدم .. ثم جذبنى شىء الى الخلف ووقعت على الارض .

علمت فيما بعد .. أن زميلى فى الفنار أمسكا بى ليخرجانى من البحر ، وانهما لو تأخرا دقيقة واحدة لما كنت حيا اليوم .. ولكن صدقنى لقد تشاجرت معهما لانهما منعانى من اصطيادها .. كان لابد أن اصطادها .. كنت أريدها هنا .. انظر اليها وقد خرجت من الماء وتمددت بلا حول ولا قوة تحت أقدامى على الارض .. عزائى الوحيد أنها ماتت ونهشها القرش الذى كان يخشاها ..

وقاطعته متسائلا :

ــ وكيف تجزم أنها ماتت ؟

وظهر الضيق على وجه الرجل ، كأنه لا يريد أن يناقش هذا الاحتمال ، وقال بقوة وحرارة :

ــ انها لم تعد منذ تلك الليلة .. لا يمكن ألا تأتى لرؤية بيضها الا اذا كانت ميتة .. لقد قتلتها .. انى واثق من ذلك !

www.library4arab.com/vb

١٢

لم أنتبه وأنا أستمع لتلك القصة الى حقيقة غريبة ، أدركتها فيما بعد وأنا فى القاهرة .. انهانفس قصة « موبى ديك» الحوت العظيم الذى صمم على قتله القبطان « ايهاب » .. قصة الحقد والرغبة فى الانتقام ، ومحاولة الانسان أن يسود على غيره من المخلوقات ، وحنقه الشديد اذا ما وجد نفسه ضعيفا أمام سمكة !

على أن قصة « موبى ديك » وهذه القصة المصرية بطلاها عاشا فى المدن ، ودخلا المدارس واكتسبا شيئا من غرور الانسان، وايمانه بقدرته المطلقة ، وهما بذلك يختلفان تماما عن نوع آخر من الرجال يجوبون البحر الاحمر طوال حياتهم ، ولم تقع عيونهم على مدينة ولا تطأ أقدامهم أرضا الا نادرا ..

www.library4arab.com/vb

وهؤلاء الرجال الفطريون يزورون من حين لآخر وعلى غير انتظار فنار أبى كيزان .

انهم « الجهاينة » أو البحارة العرب القادمون من الجزيرة العربية فى مراكب ذات شراعين توجد فى النيل مراكب شراعية أكبر منها ..

والجهاينة عراة لا يلبسون غير خرقة من القماش يلفونها حول العورة ، جلودهم سوداء فى لون الليل ، وعلى رأسهم عمامة ، وصوتهم رفيع حاد كصوت زجاج يتحطم !

انهم سلالة البحارة العرب فى القرون الماضية أيام كانت السفن العربية تنقل تجارة العالم ، وتنتقل بين الصين والهند وموانى ايطاليا والاندلس ..

ولا يدرى الجهاينة شيئا مما يحدث فى العالم . ولا يعرفون أن بلادهم تنتج البترول وأن السيارات الكاديلاك تسير فى صحرائهم ، والثلاجات الكهربائية ترطب الحر المحرق هناك .

يعيش الجهاينة مع السمك كأنه منهم ، وهم من جنسه ، يغوص الواحد منهم الى أعماق خيالية فى البحر ، ويظل دقائق طويلة دون أن يطفو على السطح ، يبحث عن الاصداف واللآلىء، ولا يكل أبدا من البحث ، اذا نفد طعامه اصطاد سمكا أو طيرا وأكله ، واذا احتاج لطعام غير لحوم الاسماك والطيور ذهب بمركب الى فنار أبى كيزان مثلا وطلب من رجاله بعض الطعام والماء ..

يصيح الجهاينة بصوتهم الرفيع فى رجال الفنار :

ـ نريد قهوة . نريد رز (أى أرز) .

ويأخذون ما يريدون ثم يمضون لحالهم ..

واذا سألت الواحد منهم :

ـ كم مضى عليك من الوقت فى البحر ؟

أجابك فى هدوء وبصوته الزجاجى :

ـ قمران ونصف !!

أى شهران ونصف ..

مثل هؤلاء الرجال لا يمكن أن يحقدوا على الاسـماك ، أو يثأروا منهـا ، ولا يمـكن لمن يراهم أن يفـرق بينهم وبين أنواع السمك الاخرى الغريبة التى تعيش فى البحر ..

وهم لا يخشون القرش ، اذا ما غاصوا فى الماء .

القرش هو الذى يفر منهم فزعا ، فجلودهم السمراء ، تجعل منهم درافيل ، يهرب منها القروش !

www.library4arab.com/vb

١٣

مأساة رجال الفنارات لا تقتصر على عزلتهم غير الطبيعية عن الحياة والمجتمع ، بل هى تزداد حدة لاختلاف أعمـار وثقافات الرجال المضطرين للحياة معا ..

رجل جاوز الخمســين يعيش الى جانب شـــاب لم يبلغ الثلاثين ..

اثنان لا يهتمان كثيرا بالتفكير فى الدين ، يعيشان الى جانب رجل متصوف متدين يصمم على أن يؤذن فيهم عند موعد كـل صلاة ، ويجمعهم فى أيام الجمعة ليقف أمامهم خطيبا !

رجل متزوج يحتفظ بصورة زوجته وأولاده فى حجـرته ، يخالط شابا غير متزوج يلصق على الحائط صور مارلين مونرو واستر وليامز وهى ترتدى المايوه البكينى ..

رجل جاء بعد أن ضاق بالدنيا والحياة يزامل آخر جاء من أجل أن يحصل على ضعف مرتبه ويدخر المال الذى يساعده على الاقبال على ملذات الحياة ..

رجل هوايته صيد السمك ، وثان هوايته التريكو ، وثالث يركن الى الصمت بعد أن يغلق على نفسه حجرته .

واحد أكول يحب الطعام الكثير ، وآخر مريض ممعود لا يقوى على أكل شىء ، وينفر من رؤية السمك !

والجميع يحسون فى عزلتهم أن من حقهم أن يفعلوامايريدون، فهذا هو أقل تعويض ممكن لوحدتهم وغربتهم واحتمالهم المنفى.

فيتمسك كل واحد برغباته وهواياته كالطفل الصغير ، وسرعان ما ينشب بينهم الخلاف ، فيعيش كل واحد فى عزلة تامة ، لا يخاطب زميله ، ويكتفى بمراقبته عن بعد .. فى صمت !

وفى فنار أبى كيزان استطاع أحد الرجال أن يحول مشاعره الى سمكة كرهها وصمم على قتلها ..

وأحيانا أخرى لا يجدون وسيلة للتنفيس عما يحسونه من كبت ، وهنا يبدأ خطر الاصابة بالجنون ، وقد حدث فعلا أن أغلق أحد رجال الفنارات حجرته وصاح وهو يبكى أنه سيحرق المكان .

وعاش زملاؤه أياما طويلة من الرعب وهم يراقبونه ويمنعون عنه أعواد الثقاب والآلات الحادة ولا ينامون لحظة حتى لايغافلهم ويقضى على نفسه ، أو يقضى عليهم ..

www.library4arab.com/vb

ولم يهدأوا حتى جاءت السفينة ، وحملت الرجل الى مستشفى المجاذيب .

١٤

سمعت الكثير عن عواصف البحر الاحمر ، وتقلب الجو فيه ، وكان قبطان السفينة يشرح لى مفاجآت الرياح والعواصف التى تهب فجأة وتزول فجأة ، وأنا استمع اليه دون أن أشعر بحقيقة ما يقول ، كأنى اقرأ فى كتاب عن عالم عجيب .. أعرف وأفهم ، ولا أحس بحرارة التجربة لانى لم أتورط فيها بعد ..

كان خيالى قاصرا عن تصور السفينة الكبيرة التى أركبها ، وهى ترتفع وتسقط فوق الامواج .. وتهتز يمينا وشمالا ، وتتأرجح كاللعبة فى يد طفل يلهو بها .. صور خيالية كالتى أشاهدها فى السينما وأنا جالس على مقعد مريح فى صالة مكيفة الهواء .

www.library4arab.com/vb

قال القبطان وهو يرقب سطح الماء الهادىء لا تعكره الامواج تحدثها السفينة وهى تشقه :

– لا أحد يستطيع التنبؤ بما قد يحدث بعد ساعة !.. فهذا البحر على اتساعه محصور بين الجبال على الشاطئين ، وكثيرا ما تشتد الرياح فى أماكن محدودة منه .. انه بحر غريب لا كل البحار ..

وقلت له فى مرح وتفاؤل يؤيدهما ما أراه من سكون حولى :

– انت لا تصف بحرا .. انت تصف امرأة ..

فصاح القبطان وهو يضحك ضحكة عالية :

– هذا البحر فعلا امرأة .. وسترى ..

وتركنى وذهب الى برج القيادة يصدر أوامره .

وبقيت وحدى أنظر الى الماء حولى من كل جانب .. وأتأمل الشمس قبيل الغروب وهى تلقى نظراتها الطويلة الاخيرة على سطح الماء ، كأنه سطح مرآة تتبين فيها الشمس ملامحها لتتزين وتتورد قبل أن تختفى وتذهب بعيدا عنا فى زيارة لغيرنا من البشر .

وكان طير البحر « النورس » يحوم فى جماعات حول السفينة . انه طائر فى حجم البط الكبير ولكنه يشبه الحمام .. كان يرتفع وينخفض ، ويتصايح بصوت قبيح كصوت الاولاد المراهقين .. وسمعت من بعيد أحد ضباط السفينة يقول لزميله:

– انى أكره هذا الطير .. صوته مزعج منفر .

وتذكرت الرجل الذى تركته فى جزيرة أبى كيزان فى وسط البحر ، ذلك الرجل الصامت الذى يصطاد السمك بالنهار ، ويسهر على اضاءة فنار الجزيرة بالليل ..

كنت استمع الى مغامراته فى صيد السمك عندما تركنى فجأة وذهب الى صفيحة قديمة ملقاة على الارض يعلوها الصدأ ، ورفع الصفيحة فاذا ببيضة فى حجم بيض الدجاج تحتها .

وقال الرجل فى هدوء :

ــ هذه بيضة النورس ..

وما كاد يفتح فمه بهذه الكلمات ، حتى جاء طير ينعق ، ويحوم حولنا فى فزع وخوف . وكان واضحا أن الطير يحاول يائسا الدفاع عن بيضته الوحيدة ..

واعاد الرجل الصفيحة فوق البيضة ، وابتعدنا عنها خطوات ، فدلف الطير مسرعا تحت الصفيحة ليطمئن بنفسه على البيضة .

وسكت الرجل برهة قبل أن يقول وعلى شفتيه ابتسامة فيها مرارة :

ــ مسكين هذا الطير .. لقد تركوه ..

فقلت فى همس وانا أخشى أن يقطع صوتى ما يدور فى رأسه من صور يتخيلها فيبتسم هذه الابتسامة المريرة ..

قلت :

ــ من الذين تركوه ؟..

فتنهد الرجل ، وبسط يده مشيرا الى الجزيرة الصغيرة كلها ، كأنه يحاول أن يغطيها بكفه ، وقال :

ــ لقد جاء النورس بالمئات .. وهبطوا على هذه الجزيرة ساعة غروب أحد الأيام ، فغطوها كلها .. حتى لم أستطع تبين الارض من تحتهم ، وناموا هادئين طوال الليل ، وعند شروق اليوم التالى رأيتهم يتجمعون فى صفوف كفرقة عسكرية فى جيش مدرب ، وبدأوا ينطلقون الى السماء جماعات .. وطاروا جميعا ما عدا هذا الطير الوحيد لم انتبه الى بقائه أول الامر ، ولكنى عجبت بعد اختفاء النورس لعودة فريق منه ، حلق فوق الجزيرة

ثم هبط متجها الى تلك الصفيحة ، وعندئذ رأيت ذلك الطير يخرج لهم ويدور بينه وبين الفريق العائد نقاش .. اقسم أنه كان

نقاشا ، فقد ارتفع وطال نعيقهم ، وطار البعض متظاهرا بأنه يغادر الجزيرة ، ثم عاد من جديد ليستأنف النقاش في حدة وعنف ، وأخيرا طارت الفرقة كلها ، وتركت هذا الطير الوحيد . وذهبت اليه لاكتشف سره .. لقد بقي من أجل بيضة وضعها على غير انتظار ، فلزم مكانه لانه لايستطيع التخلى عنها .. طائر عاطفي أليس كذلك ؟..

١٥

وددت لو أروى هذه القصة لضابط السفينة الذى يكره النورس ، والتفت اليه فوجدته قد ذهب فى بعض شئون عمله .

وأحسست بالضيق فجأة ، وشعرت برعدة وأنا أذكر ماحدث لحظة مغادرتى لجزيرة ابى كيزان .

كان طبيب السفينة قد فزع من كشفه على أحد رجال الفنار الثلاثة ، وقد شكا من المرض ، وخرج الطبيب والمريض الى مرسى الجزيرة ، وكنت واقفا مع الرجل الاخر نتحـــدث عن النورس ، عندما أخرج الطبيب من جيبه آلة تصوير صــغيرة ، واقترح أن يأخذ لنا صورة قبل أن نهبط الى القارب ونعود الى السفينة،واذا بالشاب المريض يثور فى عصبية قائلا :

— بلاش صور يا أفندى ..

وتركنا ومضى الى داخل الفنار،وشعرت بالارتباك لما وقع ، أن الشاب فى أزمة ، فنحن على وشك مغادرة الجزيرة ، لنعــود

الى المدينة والناس والمجتمع والحياة ، وسيذهب الطبيب بالفيلم الى دكان التصوير ، ويخرج الصورة ، كذكرى مسلية ، يتحدث عنها مع أهله وأصدقائه ، والصورة تتنقل بين أيديهم ، وسيظل هذا الشاب فى وحدته ، بلا أهل ولا أصدقاء ، ولا يتسلى حتى بالصورة التى أخذها له الطبيب .

اننا بمغادرتنا الجزيرة ، وبذهابنا الى السفينة التى ستختفى فى عرض البحر ، نقطع كل صلة بين رجال الفنار والحياة ، انها لحظة اليمة فى حياة الانسان .. لا الانسان فقط ، فها هو طير النورس المختفى تحت الصفيحة فى هذا المكان النائى من العالم ، يستطيع أن يروى عن ألم الفراق ، ان النورس ضحى بمجتمع الطيور من أجل بيضته ، ورجال الفنار يضحون بمجتمع البشر من أجل شعلة مضيئة فى الليل تهدى السفن وتنقذها من الغرق .

ولكن الفراق على أية حال اليم .. اليم .

ولم أتحمل أن أكون فى مغادرتى للجزيرة رمزا لانقطاع الحياة عند هؤلاء الرجال ، فأدرت وجهى ، وأسرعت أقفز الى القارب ، ثم نظرت الى البحر والى السفينة ، وأنا أخشى أن التفت الى الوراء ..

وبدأ القارب يتحرك ، عندما حولت رأسى رغما عنى فى نظرة أخيرة الى الجزيرة ، وعندئذ وجدت الرجل الذى كان يحدثنى عن النورس ، ينظر الى نظرة ثابتة ، وقد عادت الى شفتيه ابتسامته المريرة ..

وهتف الرجل من بعيد ..

ــ كده تنزل من غير ما تسلم !

واندفع الدم الى رأسى ، ولم أستطع أن أتبين شيئا أمامى للحظات .. كيف أشرح له ما فى صدرى ورأسى من انفعالات ..

ماذا أقول له ؟.

مجرد كلمات لا يمكن أن تعبر عن شيء ، ولوحت بيدى فى حركة آلية ، وكأنى انسان مزيف مصنوع من الخشب .. أو ربما القش ..

***

طافت برأسى هذه الصورة ، وأنا مستند الى حاجز السفينة انظر أمامى الى الماء ولا أراه ، وامتدت يدى الى شفتى بسيجارة حاولت أن أشعلها فلم أفلح ، كانت الريح تطفيء عود الثقاف .. فى تلك اللحظة فقط ، أدركت أن شيئا قد حدث فى البحر ، اختفت جماعة النورس التى كانت تمرح حول السفينة ، وفرغت الشمس من زينتها ، وتركتنا نستقبل الظلام ، واضطرب سطح الماء اضطرابا خفيفا ، ولكن الرياح كانت تشتد ، وخاطر يدوى فى رأسى ، ينذرنى بالخطر .

وانتحيت ركنا وجلست القرفصاء بعيدا عن تيار الهواء،حتى نجحت فى اشعال السيجارة .. ثم مضيت أتجول فى السفينة حتى أطرد عن نفسى هذا الخاطر المزعج ، ولاطمئن نفسى بأننا غير مقدمين على عاصفة ..

والتقيت فى طريقى بجماعة من البحارة يجلسون حول الميكانيكى الأخرس فى ملابسه الزرقاء . وعلى رأسه البيريه يكاد يسقط من مؤخرة الراس .. ووقفت بعيدا أتظاهر بالنظر فى الماء .. وأنا أستأنس بحديثهم ..

كانوا يتندرون بما فعله الأخرس أيام الغارات .. فهو أصم لا يسمع ولم يكن يجد أحدا ينبهه فى الليل الى صفارات الانذار، واهتدى الأخرس الى حيلة بارعة ، جاء بصفائح رقيقة وعلقها فى حجرته وربطها بخيط لف طرفه حول اصبع قدمه .. وكان ينام ملء جفونه ، ثم تدوى صفارات الانذار ، ويبدأ ضرب القنابل

فتهتز الصفائح وتحرك الخيط الـذى ينبـــه الرجل ويوقظه من نومه ..

وبدأت السفينة تتأرجح قليلا .. فقال أحد البحارة :

ـ النوا ـ العاصفة ـ ح يشد ..

وقاموا وتفرقوا ، وازداد شعورى بالقلق ..

وذهبت الى قمرتى ، واستلقيت على السرير فاذا بى احس كأنى راقد فوق مرجيحة تحركها يد لطيفة .. وكان من الممكن أن يداعبنى النعاس وأنا على هذه الحال ، لولا تيقظى الشديد ، وأنا استقبل لاول مرة فى حياتى تجربة ملاقاة العاصفة .. مـددت يدى الى كتاب أحـاول أن اقرأ فيـه ، وكان من الممـكن أن أقرأ بسهولة ، ولكن عيناى كانتا قلقتين تدوران فى القمرة تبحثان عن مصدر أصوات لاشياء تهتز ، وأذناى تصغيان لصـــوت الرياح ولصوت آلات السفينة ، وأصوات أخرى بعيدة لحركة دائبـة فى كل مكان ..

ثم أصبح من المستحيل على أن أمسك بالـــكتاب .. كانت أصـــوات الاهتزاز تزداد اكثر فأكثر .. وطنين المرياح يقوى ، والارجوحة اللطيفة التى أرقد عليها تتحول الى لعبـة عنيفة فى مدينة الملاهى ، ولم أتحمل بقائى وحدى ، فنهضت لاخـــرج من جديد الى السطح ..

وذهلت عندما وجدتنى أترنح فى مشـيتى وأندفع لأرتطم فى باب القمرة ، وتساندت على الجدران مواصلا ترنحى ، وصعدت السلم واذا بى وجها لوجه مع العاصفة !

مشيت فى طريقى الى مكان القبطان لعله يطمئنى ، ولم يكن مشيا بالمعنى المفهوم ، كانت قدماى تتلوى من تحتى ، وأنا أتحرك فى كل اتجاه فى نفس الوقت .. والسفينة ترتفـــع وتنخفض

وتميل بمقدمتها ومؤخرتها وتميل الى يمينها وشمالها وتتأرجح فى اتجاهات لولبية .. كل ذلك فى آن واحد ..

وكان البحارة يمرون بى ثابتين .. يمرقون كالسهم وأنا أنظر اليهم فى حسد محاولا أن أدرس حركاتهم ، انهم يمشـــون فى العاصفة وقد فتحوا مابين أرجلهم ، ويلوون أقدامهم كلاعب كرة القدم عندما يحاول قذف الكرة ببطن قـــدمه ، ثم يسرعون فى مشيتهم ، ومر بى خادم القبطان وهو يحمل صينية فوقها أكواب الماء وأقداح القهوة ، واندفع الى مكان القبطان وكأنه لا يعتـــرف بالعاصفة ولا يحس بوجودها . ورأيت الجميع يهبطون من السلالم وقد قبضوا على حاجز السلم بطريقة غريبة ، فنحن فى العـــادة نضع يدنا على الحاجز وننظر الى درجات السلم تحت أقـــدامنا ، بينما هم ، يجعلون الحاجز فوق بطن اليد . ويهبطون بجـــانبهم لا ينظرون الى درجات السلم ، ولكن الى الحاجز نفسه ..

ان النظر الى موقع القدم يســـــاعد على الزلل ، والنظر الى الحاجز يساعد على الثبات .. هذا هو قانون الهبوط على سـلم السفينة ، خاصة اذا تمايلت مع العاصفة !.

وسمعت ضابطا يهمس وأنا أمر به قائلا لزميله :

ـ انظر انه يمشى كالسكران ..

وملأتنى هذه الملاحظة بشعور التحدى ، وقررت أن أتماسك وان أتظاهر بأنى مثلهم غير عابىء بشىء .. ولـكن عبثا حاولت ، لقد كنت اترنح فعلا كالسكران ، ووصلت الى القبطان وأنا ألهث وزاد ارتباكى وحنقى عندما انتابتنى رغبة فى القىء ..

ضحك القبطان بأعلى صوته لمنظرى وقال فى ابتهاج :

ـ الم اقل لك !!

وأشار الى الموج العالى ، فنظرت اليه لاول مرة وانا استند بظهرى الى الجدار فى ممر السفينة ، وصاح القبطان :

ـ هذا هو البحر على حقيقته .. امراة ثائرة .

ولم أقل شيئا ، لا فائدة من تشبيه البحر بالمـــرآة أو بأى شىء آخر الآن .. اننا عندما نواجه الظواهر الطبيعية الـكبرى ، ننسى النسـاء والعواطف والمشاعر والادب والفن ، وكل المشـاكل التى تتراكم فى نفوسنا .. ولا يبقى لنا الا الطراع من أجل البقاء، ذلك الصراع القديم منذ وجد الانسان فى هذه الارض .. صراعه ضد الوحوش المفترسة وضـــد الصواعق والعواصف والبراكين والزلازل والجوع والعطش .. صراعه الذى جعله يفكر فى اللجوء الى بيت يؤويه ، والبحث عن أرض تطعمه ، ونهر يرويه ، ومكان أمين يحميه .. انه الصراع المباشر فى هذه الحياة ، الذى تذوب أمامه جميع المشـاكل والاحاسيس الاخرى التى نتورط فيها عندما نطمئن بعض الشىء ، فننفق أيامنا فى البكاء عـــلى امرأة نحبها ونتصور التعاسة من أجل متعة افتقدناها ..

ونادى القبطان بصوت مرتفع ..

— يا أسكا ..

وظهر « الاسكا » وهو اسم يطلق على البحار الذى ليس عنده عمل .. وطلب منه القبطان أن ينادى خادمه ..

ثم التفت الى وقال :

— مارأيك فى أن نأكل شيئا ؟

وأجبت على الفور وأنا أغالب تلك الرغبة المخجلة فى القىء :

— أنا لا أستطيع أن أذوق شيئا الآن .. وتفحصنى القبطـــان بعينيه وقال :

— هل تشعر بشىء ..

فقلت متظاهرا بالضحك ..

— لا أبدا ..

ولكنه ادرك ما أحسه ، فقال فى هدوء :

— ان البحر المتقلب يصيبنا بالدوار .

فقاطعته فى إرتياح وقد بدأ هو بأثارة الموضوع :

ـ الا يوجد علاج لهذا الدوار اللعين ؟

فأجاب فى حزم :

ـ العلاج الوحيد هو الاستسلام له ، نحن هنا فى سفينة ، وعلينا أن ننتبه ونتيقظ لكل احتمال ، وقد نمرض أو نشعر بالدوار ، ولكن يجب أن نتعود على العمل ، وأن ننسى ما نحس به . . .

فقلت له :

ـ انت لاتحس شيئا على الاطلاق .. لست ادرى كيف تشعر برغبة فى الطعام الآن .. كيف تأكل ونحن نتأرجح بهذه الصورة العنيفة ، ان كل شيء فى جسمى أصبح فى غير موضعه قلبى قد غاص الى بطنى ، ومعدتى قد ارتفعت الى فمى ..

وابتسم القبطان قائلا :

ـ لا فرق بين معركة السفينة ضد العاصفة ، وأى معركة أخرى نواجهها فى الحياة ، المواجهة لابد منها ، لو حاولت السفينة أن تلف وأن تدور وأن تواجه العاصفة بأحد جوانبها ، لتعرضت لمأزق لا نجاة منه .. نفس الدرس الذى نتعلمه من تجاربنا فى مواجهة مشاكل الحياة ، لا مجال للف والدوران ، مواجهة المشكلة هو خير طريقة للتغلب عليها ..

ومرة أخرى يدرك الانسان أن الصراع الكبير يتطلب منه أن ينسى كل ما يدور فى نفسه من صراعات .. وأن يتجاهل حتى ما فى جسمه من مرض ..

فكانت الاوامر تصدر من برج القيادة الى البحار الممسك « بالضمان » ـ الدقة ـ بأن تمضى السفينة بمقدمها تشق الرياح والامواج العالية الهائجة ، والموج يندفع الينا يعلوه زبد ابيض لونه يطغى على سواد الليل .. خطوط من الزبد الابيض ثائرة تغلى قادمة بالمئات .. بالآلاف ..

ووضع أحد ضباط السفينة يده على كتفى وأشار الى الموج قائلا :

– انظر الى الزبد الأبيض .. البحارة الانجليز يسمون البحر فى هذه الحالة بأنه ميدان سباق الخيول البيضاء ..

قالها لى وهو يظن أنى سأهتم بهذا التشبيه الفنى ، ولكن الموج والزبد والرياح والهزة الدائمة والدوار فى راسى ، كل هذه الاشياء كانت تدعونى أن أترك المكان وأسرع بعيدا ..

جريت الى دورة المياه ، وأغلقت على نفسى الباب ، ورأيت الحوض والبانيو والنافذة المستديرة ، كلها تتقلب .. وأفرغت ما فى جوفى ..

وذهبت الى قمرتى ورقدت على السرير أستريح ، فلم أجد راحة ، كانت كلمات القبطان تطن فى رأسى عن المقاومة ، وكنت أفكر فى هؤلاء الرجال الذين يعملون ويتحركون ، وهم جميعا يحسون بالضيق والتعب ، ولكنهم ماضون فى نشاطهم غير عابئين بالعاصفة ..

كان الخجل من نفسى هو الذى يبعد عنى الراحة فى تلك اللحظة ..

يجب ألا أتخاذل وألا أستسلم ..

وقفزت من رقدتى ، ومشيت مقلدا البحارة ، فتحت ما بين رجلى ، ولويت قدمى كأنى لاعب محترف لكرة القدم ، وصعدت سلما ، وهبطت من سلم ، وأنا أضع الحاجز فوق بطن يدى ، وذهبت الى القبطان وضباط السفينة ، ووقفت معهم أواجه العاصفة ، وشعور بالثقة يملأنى وأنا أراهم يصدرون الاوامر ويأكلون ، ويضحكون ويتصرفون كما يجب أن يتصرف البشر عندما يواجهون العاصفة ..

١٦

استمرت العاصفة طوال الليل ، ورجال السفينة صامدون ، لا نوم يداعب جفونهم ، ولا آثار تعب تبدو على وجوههم ، ولا فكرة عن الراحة تخطر ببالهم ..

كانت السفينة كلها تنتفض فوق الموج الصاعد الهابط ، وكل من فى السفينة ينتفضون بالحركة والحياة ..

ولست أدرى هل كانوا يعملون فى صمت ، ويتكلمون فى همس، أم ان صوت الرياح هو الذى أخفت أصواتهم وطغى عليها ..

وكنت أتوقع أن يهدأ البحر فى أية لحظة .. كنت أتمنى وأتوقع أن يهدأ البحر حتى تحولت الامنية الى شبه عقيدة فى نفسى .. ان تماسكى وتحمسى لهذا الوضع غير الطبيعى الذى أعانيه سببه هذا الايمان بأن العاصفة ستهدأ فى أية لحظة ..

ولكن متى تهدأ العاصفة ؟

حدقت ببصرى فى ظلام الليل ، لا شىء غير السواد الحالك والرياح التى تصك وجهى ، والطنين المستمر فى أذنى ..

ماذا لو استمر هذا الحال ساعة ، أو يوما ، أو ثلاثة أيام .. ما هو مدى احتمالى لأن أعيش هكذا فى كل لحظة من حياتى أتأرجح فوق سفينة كل شىء فيها يتأرجح ، آكل واشرب وافكر وأنام وأنا أتأرجح ؟!

وهبت موجة عالية غمرنى رذاذها بالماء ، فتراجعت وقد طار من رأسى كل خاطر .. هذه الموجة العالية التى ترتفع فوق السفينة شىء جديد ، ان البحر يزداد هياجا ..

وأسرعت الى القبطان أقول له :

ـ لقد ارتفعت موجة الى سطح السفينة !

ولا بد أن القبطان نظر الى وكأنى طفل صغير يرى أشياء جديدة لاول مرة فى حياته ، فيجرى متعثرا الى أبويه يسألهما عما يراه ..

قال لى القبطان وهو يبتسم :

ـ بسيطة !

وتدخل ضابط الى جواره قائلا :

ـ أتسمى هذا موجا ؟! انه لعب عيال اذا قارنته بأمواج المحيط الهندى .. هذه العاصفة كلها لا شىء الى جانب العواصف الحقيقية .. عندما تقتلع الرياح كل من يقف هنا مكانك على السطح ، وتغطى الامواج السفينة وتملؤها بالماء ..

وشعرت بالخجل ، أدركت فى تلك اللحظة أنى أتكلم وأسأل فعلا كالطفل الصغير ..

وشعرت بالأسف أيضا ، لأن هذه العاصفة ليست خطيرة كما كنت أظن ، فاحساسى بالخطر جعلنى احس بأهمية نفسى ، وها هم رجال يهزأون بما ظننت أنه خطير .

كانت كلماتهم تجعلنى أتضاءل ، وكانت تجعلنى أزداد شجاعة واحتمالا فى نفس الوقت ..

وتركت القبطان وضباطه ، ومضيت أتجول فى السفينة متظاهرا بأننى غير مهتم بالعاصفة !

وقابلت عنتر رئيس البحارة ، وكان فرحان جذلا .. هذا الرجل الذى اختلطت فى وجهه الفتوة بالكهولة ، قد زاد وجهه اشراقا ونضارة وتغلبت فتوته على شيخوخته :

ـ كيف حالك يا عنتر ؟

ـ عال .. الحمد لله ..

ـ ما رأيك فى حال البحر يا عنتر ؟

ـ مزاجى البحر العالى يا افندى ..

ـ ولما يزداد هياجه ؟

ولمعت عينا عنتر ، وقال وهو يتأرجح مع المركب طربا :

ـ مزاجى لا يتم الا عندما تكون المركب فى خطر الغرق !

وتركته مسرعا .. كيف أتفاهم مع هذا الرجل الذى يرحب بالصعب والأهوال ؟!.. اننى قادم من عالم آخر غير هذا العالم ، حياتى فى المدينة علمتنى حب الراحة والرفاهية واجتناب الاخطار ، اننا نضجر ونضج بالشكوى ان اهتزت بنا سيارة فى طريق غير معبد ، نشكو من المدينة اذا اشتد قيظ الصيف ، نحن مخلوقات من صنع المدينة ، ننمو بين الجدران ونلتف بالاغطية ، ونبلع حبوب الدواء والفيتامينات ، وندعى اننا نواجه الحياة ، فاذا ما خرجنا من قوقعة المدينة ، وذهبنا الى البحر أو حتى الى الريف ، انزعجنا واضطربنا وتأففنا وشكونا لطوب الارض مضيقات الحياة ..

ان عنتر من طينة أخرى غيرنا ، انه ليس ابن مدينة ، وليس أسير رفاهية ، حياته عريضة كالبحر الذى يعيش فيه ، انه

يواجه الظواهر الطبيعية ، ويتعـــامل مع العواصف والانواء ، ويشعر بالسعادة فى لحظات الخطر ، ومزاجه لا يتم الا اذا أوشك على الغرق ..

وقد أوشك عنتر على الغرق عدة مرات طوال ثلاثين عاما ، حتى أنه لايذكر عددها ولم تبق فى ذاكـــرته الا المناســبات الهامة ..

مثل ذلك اليوم الذى ضربت فيه السفينة بقنبلة ألقتها طائرة المانية فى الحرب العالمية الثانية ، وانفتحت ثغرة فى السفينة وهى بالقرب من فنار الزعفرانة ، واندفع الماء الى الداخل ، بينمـــا انقض الطيار الالمانى بطائرته يريد أن يضرب السـفينة الضربة القاضية ، وكان الطيار واثقا من أن السفينة قد أصيبت فى مقتل، فهبط مطمئنا حتى كاد أن يمس سطح السفينة ، وهو يصوب مدافعه الرشاشة الى البحارة الواقفـين على السطح .. والذين يقاومونه بمدفع فيكرز ..

وهبط الطيار الطائش أكثر من اللازم ومس السفينة فعلا ، مس الصارى العالى بجناحه .. فتمزق الجنـــاح وهوت الطـــائرة الى البحر ..

فى ذلك اليوم نقل عنتر بقارب صغير كل من بالســفينة الى الشاطىء ، ولم ينس أن يأخذ معه ثلاثة طيارين المـــان كأسرى انتشلهم من البحر .

حقا ان عنتر هو آخر من أستطيع التفاهم معـــه ، هو يحب الخطر ، وأنا أفر منه ، وكان لابد أن أفر من عنتر !

١٧

وجدت نفسى عند مدخل مكان الآلات فى قاع السفينة ، ورأيت المهندس قريبا منى يبتسم لى . انه شاب جاوز الخمسين من عمره ! يلبس الشورت ، وقميصا خفيفا فوق اللحم ، ويتحرك برشاقة ، ويتكلم بصوت عال اعتاده من المنافسة الدائمة بين صوته وصوت الآلات ، وله وجه أسمر لفحته الشمس ، تركز فى وجنتيه وعينيه اللتين تلمعان من خلف النظارة شبابه ، وتركزت فى الشعر الابيض المنتشر فى رأسه شيخوخته .. يتحرك بهدوء ، ويتحدث بانفعال ، ويروى عن آلات المركب كأنه يحكى قصة حب ..

ودعانى المهندس الى الدخول ، فدخلت القاعة الكبيرة التى تزدحم بالآلات ، وهبطت على سلالم صغيرة ، وحنيت رأسى من تحت قضبان حديدية ، ودرت حول أعمدة عالية ، والمهندس يشرح لى ، وأنا أحاول أن أفهم ، وقد نسيت تماما أننا نتأرجح أو حتى اننا فى سفينة فى البحر .

وكانت القاعة كالمصنع الكبير والرجال فيها ليسوا بحارة ، بل عمال فى ملابسهم الزرقاء . انهم مساعدو المهندس يلتفون حوله ، كما يلتف البحارة حول القبطان ..

وتذكرت القبطان وهو ينادى المهندس بالدكتور ، لأنه يعالج أمراض السفينة وما يصيبها من عطل ، ان هذه السفينة قديمة وتنتابها الامراض فجأة فتتعرض للخطر ..

كانت تقترب فى احدى المرات من شعب مرجانى يبدو قريبا منها ، وأصدر القبطان اوامره بالالتفاف مبتعدا عن الشعب الذى يفتك بالسفينة اذا اصطدمت به ..

وصاح القبطان :

ــ خمس درجات سقالة « شمال » ..

وظلت السفينة مندفعة الى الشعب ..

وصاح القبطان يصدر اوامره من جديد :

ــ عشر درجات سقالة ..

وردد البحار المسك بالضمان (الدفة) أوامر القبطان ، مما يدل على انه استمع الى الامر وقام بتنفيذه .

ولكن السفينة ظلت تتقدم فى طريقها ولا تحيد عنه الى الشمال !

وصرخ القبطان فى عنف ، وسرى صوته هادرا فى البوق من برج القيادة الى اسفل حيث يمسك البحار بالضمان ، ولكن البحار اجاب فى الحال ، بأنه استمع الى الامر ونفذه ..

وتوجس القبطان الخطر ، فالسفينة رغم ذلك تقترب فى كل لحظة من مصيرها المحتوم .

وأصدر القبطان أمرا سريعا :

ـ سقالة الاباندا (شمال الى الآخر) .

وحرك البحار الدفة الى نهايتها ، والســـفينة لا تلتفت يمنــة ولا يسرة وتندفع الى الامام لتصدم بالشعب المرجانى ..

وأدرك القبطان أن الدفة قد تعطلت ، واتصـــل بالمهندس فى الحال ، الذى خلع قميصه وأسرع فى غرفة الآلات يفحص جنزير الدفة ، فوجده منزوعا من مكانه وأصلحه وهو يلهث فى سـباق حياة أو موت مع الزمن ..

ونجت السفينة ويومهـــا أطلق القبطان على المهنـــدس لقب الدكتور لاول مرة .

كنت أتتبع شرح المهندس ، وانا أذكر هـــذه الحادثة ، فأحس بأهمية الرجل ، وبأن حياتى متعلقة بقــدرته على السيطرة على هذه الآلات الرهيبة المعقدة ، وفهمه لخباياها واسرارها ..

ووصلنا الى فجوة فى حائط ، كأنها جحر حيوان فى جبــل ، وانحنى المهندس ودخل من الفجوة ، وهو يدعونى الى ان أتبعه ، وكان صهد لافح محرق يأتى من داخــل الفجـــوة .. فيغمرنا بالعرق ، ويشد جلد وجهى كأنه يدبغه ، ومشينا خطوات فى ممر ضيق قبل أن ننفذ الى جهنم !

افران كبيرة تتأجج فيها النيران ، حرارة لاتطاق ، ولون أسود يشيع فى المكان ونيران حمراء تتراقص وسط السواد ، ورجل يؤدى عمله اليومى العادى فى هذا المكان ، انه يواجه عاصفة من النيران تشوى الجلد ويستنشق شررا متطايرا يلسع كل مايمسه، ويقف وجها لوجه أمام جهنم ، ويمسك بجاروف يرفع به الفحم الاسود ويلقيه داخل النيران لتزداد اشتعالا .

ونظر العطشجى الى فى صمت ، ومضى فى عمله ، مـاذا يقول لى وماذا أقول له ، نفس المشكلة التى عانيتها مع عنتر ، هو من عالم

وأنا من عالم ، هو يواجه الظواهر الكبرى ، ويتعامل مع النيران المتأججة ، النيران الكبيرة ذات القوة الجامحة ، وأنا من مجتمع لايعرف الا النيران الصغيرة المستأنسة فى رؤوس أعواد الثقاب !

وقال لى المهندس بصوته المرتفع ووجهه الهادىء :

– هل تريد أن تبقى أكثر من هذا ؟

وقبـــل أن أجيب ، كنت قد أحنيت رأسى لاخرج من نفس الفجوة التى دخلت منها ..

ولما بلغنا باب قاعة الآلات ، تذكرت العاصـــــفة من جديد ، وقررت أن أسأل المهندس عن رأيه فيها :

قلت له :

– أظن أن العاصفة ستهدأ ؟

فاذا به يجيب فى الحال :

– بالعكس انها ستشتد ..

وعدت أقول فى ضيق :

– ولكنها ستنتهى بسرعة ..

فأجاب ببساطة :

– بل ستستمر أياما ..

وغمرنى شعور التلميذ الذى يسمع نبأ سقوطه فى الامتحان ، اسف وضيق يختلطان بيأس واستهتار وتحد !

فليحدث ما يحدث ، وليكن ما يكون ..

وخرج معى المهندس وذهبنا معا الى القبطـــان وكان لابد أن أصارح القبطان بما سمعته من المهندس .. فاذا بالقبطان يفاجئنى بأن العاصفة ستهدأ وستنتهى بسرعة !

ودارت المناقشة بين المهندس والقبطان ، وأنا صـــامت انتظر نتيجة الامتحان ، تحدث القبطان عن البارومتر الذى يقرؤه بين لحظة وأخرى .. وعن العواصف المحليـــــة فى البحر الاحمر ، وتحدث المهندس عن خبرته الطويلة بهـــذا البحر ، وتمسك كل واحد برأيه فحسما المناقشة حتى يتفرغا لعملهما باقتــــراح من القبطان وهو أن يتراهنا ..

القبطـــان يدفع عشرة قروش للمهندس اذا اســـــتمرت العاصفة ..

والمهندس يدفع « قرش صاغ واحد » اذا هدأ البحر ..

www.library4arab.com/vb

١٨

كانت الشمس بدأت تعلن عن عودتها من زيارتها الليلية لبلاد أخرى من بلاد البشر ، والافق يبدو على اليمين معتما من فوقه ضياء رمادية شاحبة ، ويبدو على الشمال ليلا حالكا يتلكأ أمام زحف أشعة الشمس اليه ..

لقد أوشكت الدنيا أن تغير جلدها وسيتحول السواد الى سماء وسحب ، وسيتحول الافق الى شاطىء ، وجبال تبدو عن بعد .. كل شيء يتغير كما تتغير مناظر المسرحية ..

وانطلق صوت جرس .. دقتان سريعتان ، تتلوهمـــا دقتـــان سريعتان .. لقد مضت ساعتان وبقيت ساعتان أخريان ، وعندما ينطلق صوت الجرس بدقتين سريعتين يكررهمـــا أربع مرات ، تنتهي نوبة العمل لفريق من البحـــــارة ، ويأخذ عملهم فريق آخر ..

هم أيضا يتغيرون ..

وصعد العطشجى من جهنم الى السطح ـ فنوبته تتغير كل ساعتين ـ ووقف يستقبل رياح العاصفة ، ويدعها تندفع الى رئتيه لتبرد ما فى صدره من نيران ، ثم يستلقى تحت أحد القوارب المرفوعة فوق سطح السفينة لينام خلسة بعيدا عن الانظار ، غير عابىء بتأرجح السفينة وارتفاع رذاذ الموج وصفير الرياح .

حماه الله .. لو واحد منا فعل هذا لصحنا فيه محذرين من الالتهاب الرئوى . ولكان أصيب به حتما .

١٩

من حسن حظ البحارة انهم لم يكلفوا بتموين أحد الفنارات خلال العاصفة ، ربما كان عنتر يفرح بفرصـــة ركوب قاربه ، يندفع به حاملا المؤونة والماء الى الفنار ، معرضا نفسه للخطر الذى يحبه .. الغرق .

ولكن عملية التموين كانت تبدو مستحيلة فى هذا البحر المتقلب الثائر . انها عملية شاقة فى الظروف العـادية ، والبحـر هادىء والرياح ساكنة ..

« ونش » ضخم يرفع القوارب ويهبطها الى الماء ، ويرفع خزانات الماء ثم يدلى بها فى القوارب ، وبحـــارة يهبطون الى القوارب وهم ممسكون بالحبـال تشـدهم الى السـفينة ، حتى

لاينجرف القارب بعيـــدا عنهـــا قبل أن يمتلىء بحمولته ، ثم يصيح عنتر :

ـــ مولا ..

فيجذب أحد البحارة فوق السفينة الحبل ، وينفلت القــارب محملا بالماء والخبز والبطيخ وأقفاص الحمـــام والخضروات والسجاير والرسائل الى مرسى الفنار ..

ويستخدم البحارة المجاديف أحيانا ويستخدمون الشراع أحيانا ويظلون على هذه الحال ساعات ، يروحون ويجيئـون بين مرسى الفنار والسفينة ينقلون أطنانا من المياه ..

والسفينة فى هذه الاثناء تدور فى مناورات متصلة تحاول أن تحمى بهيكلها الضخم القوارب الصغيرة من الرياح ، وتحاول فى الوقت نفسه أن تبتعد عن الشعب المرجانية الممتدة حول الفنار ، وأى خطأ فى التقدير ، وأى تردد أو ابطاء فى تنفيذ الاوامر فى أى مكان من السفينة ، فى برج القيادة أو فى غرفة الضـــمان ، أو فى مكان الآلات يعرض السفينة الى خطر الاصـــطدام بالشـــعب المرجانية ، فتتحطم وتلتصق بها الى الابد ..

٢٠

لست أدرى ماذا حدث ؟

هل اعتدت العاصفة حتى نسيتها ، أم انى بدأت أنساها لانها كانت بدأت تزول فعلا ، انى لم أشعر بالعاصفة عند قيـــامها ، وجدتنى فجأة أواجهها ، وهاهى ذى تختفى أيضا بنفس الطريقة .. جاءت متسللة ، وذهبت متسللة .. جاءت فجأة وذهبت فجأة .. جاءت عندما لم أتوقع مجيئها ، وذهبت عندما لم أتوقع ذهابها .

كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، والشاطىء يبدو قريبا ، وقد امتد منه ذراع رملى حنون ، يحجز الامواج التى تتكسر عليه ، واختفى الزبد الابيض من الموج ، وتحولت الرياح الى نسيم رقيق ، وبدأت أصواتنا داخل السفينة ترتفع وتضج بين صوت الموج ، وانقطعت صفارة الريح ، وانتشرت أكثر من ضحكة ، واعتدلت

مشيتنا فلم نعد نلوى أقدامنا ونفرج بين ساقينا ، وشعرت بالجوع ، وظهر المهندس قادما تعلو وجهه ابتسامة فرح بزوال العاصفة وهو يقول :

ـ كان يجب أن أفكر وأتصرف مع احتمال أن تظل العاصفة أياما ..

وهتف القبطان ضاحكا :

ـ لقد أديت واجبك ، ولكنك خسرت قرش صاغ !

والتفت المهندس الى يسألنى :

ـ هل معك قرش صاغ فكة ؟

٢١

ترددت كلمة زيت فى كل مكان على ظهر السفينة ، وكانت تعنى أن البحر شديد الهدوء ، وأن سطح الماء ساكن ثقيل كالزيت.

ان رجال البحر لا يذكرون اسم البحر فى حديثهم أبدا ، وعندما يتكلمون دون أن يذكروا ما يتحدثون عنه ، فيقولون : انه هادىء ، أو عال ، أو شديد ، أو زيت ، فيجب أن تعرف أنهم يتحدثون عنه .. البحر !

تماما كرجال الدين عندما نتحدثون عنه .هو القوى ... الجبار .. الرحيم . فتعرف انهم يتكلمون عن الله ، دون أن يذكروا اسمه ..

صورة الله عند البحارة .. هى البحر ..

البحر محيط بهم ، قوى ، ينزل ضرباته المفاجئة عليهم احيانا، ثم يبدو رحيما حنونا احيانا اخرى ، انهم يخشونه ويرهبونه ويحبونه ويواجهونه ، ويفرون منه !

وجلست على مقعد أرقب .. الزيت ، انه فى الحقيقية كالمرآة اللامعة ، فليس للماء لون ، اختفت زرقته ، وانعكست عليه أشعة الشمس فجعلت له بريقا فضيا ولمعانا يخطف البصر .

وساد الصمت فجأة .. البحر راقد فى سباته وأمواجه كفت عن الثرثرة والهدير ، وهاهى ذى السفينة تقف فجأة ، وتكف آلاتها عن الثرثرة والهدير .

ماذا حدث ؟ لماذا توقفنا ؟

وكان قبطان السفينة يقف صـــامتا فى برج القيادة ، ممسكا بالنظارات المكبرة ، يفحص بها سطح الماء ، والشـــاطىء الجبلى البعيد ، ثم يرفع النظارة عن عينيه فى ضيق وضجر ، ويمشى الى اليمين ثم يعيد النظارة الى عينيه من جديد ، ويفحص سطح الماء ...

وسألت القبطان :

ــ ماذا ترى ؟

ــ لا شىء ..

ــ ولماذا توقفنا ؟ ..

ــ لانى لا أرى شيئا ..

الشمس ساطعة ، ونحن فى وضح النهار ، والشاطىء ممتد امامنا ، والماء راكد ، والرياح ساكنة ، ومع ذلك لا نستطيع التقدم خطوة واحدة ، لان سطح الماء يلمع كالمرآة ولا يكشف عما فى اعماقه ..

وأشار القبطان بأصبعه الى الماء قائلا :

ــ تحتنا صخور وشعب مرجانيـــة لا نراها ، ولا يوجـــد ربان سفينة فى العالم يستطيع أن يجازف بالتقدم فى هذه المياه ..

وسألته فى حيرة :

ــ وما العمل ؟

فهز كتفه قائلا :

ــ انه خطر آخر يواجهنا .. فى الظروف العادية نرى المياه الزرقاء فنعرف أنها عميقة الغور ، ونرى المياه الخضراء فنعرف ان تحتها الشعب والصخور .. أما الان فليس للماء لون .. انه يبرق بأشعة الشمس ..

لون جديد من الخطر ، غير العاصفة ، انه كالمؤامرة التى تدبر ضدك فى الخفاء . لا شىء صريح يواجهك ، والطريق مفتوح امامك، ولكنك لو تقدمت خطوة وقعت فى الهلاك ..

اننا نقول لمن يتطلع للمرآة كثيرا ، انه سيصاب بالجنون وها هى ذى مرآة كبيرة ممتدة أمامنا يجب أن ننظر فيها على الدوام ، حتى تحين فرصة ، ونتبين ما وراء السطح .. حتى يختفى الوهم البراق ، وتظهر الحقيقة الكامنة فى القاع .

ان الخوف من الجنون سببه أن تأتى لحظة ننسى فيها أن هناك حقيقة مختفية فى القاع ، نتصور الوهم الذى نراه على انه الحقيقة . فى اللحظةالتى يصدق فيها من ينظر فى المرآة ، أن مايراه ليس شبحا ، ويتخيل القبطان أن سطح البحر لا يخفى تحته فى أمره ، وعليك أن تحتمل وتحذر الجنون .

انها مسألة صبر ، وضبط أعصاب ، وانتظار ، وفى كل لحظة يجب الا تصدق ما تراه بعينيك ، بل تشك فيه ، وتستريب فى أمره ، وعليك أن تحتمل وتحذر الجنون .

ومضت ساعتان ، ارهقت أعصابنا ، كما لم ترهقها العاصفة من قبل ، ثم بدأت الشمس فى الانحدار ، وظهر الخط الفاصل بين المياه الزرقاء والمياه الخضراء ، واتضح لنا القاع .. وبان طريق السلامة ..

وتحركت السفينة !

ولما اقتربنا من ميناء القصير ، ظهرت البيوت البيضاء متناثرة على سطح الجبل الاحمر ، وتنهد احد الضباط قائلا :

ـ انها تبدو جميلة كنابولى من البحر ..

ثم سكت لحظة ، واستأنف يقول :

ـ ولكنها على الأرض شىء آخر ..

واقتربنا بسرعة من الميناء ، وظهرت سفينة كبيرة مائلة بجنبها فوق سطح الماء ..

ومس القبطان كتفى وقال :

ـ انظر الى هذه السفينة ، لقد اصطدمت بالشعب المرجانى ، فالتصقت به ، انها سفينة روسية ..

وامسكت بالنظارة المكبرة ، ارقب السفينة الروسية فى فضول ..

حتى القبطان الروسى الذى يعيش فى بلاد الواقع ، قد اصطدم بالوهم ، لقد دخل بسفينته وهو ينظر الى سطح الماء دون أن يدرى ماذا يختبىء تحته ، توهم أن الطريق أمامه مفتوح ، فتقدم مطمئنا ، واذا بسفينته معلقة فوق المرجان ..

وقلت للقبطان :

ـ لابد أن ربان هذه السفينة حزين ..

فأجابنى على الفور :

ـ ليس حزينا فقط ، انه يكاد يجن ..

لقد ذهب لزيارته ، وصعد الى ظهر السفينة ، فقابله عند رأس السلم بعض الضباط البحريين ، لم يستطع أن يميز رتبهم وسألهم عن أحد يتحدث اللغة الانجليزية فتقدم منه رجل عجوز ورحب به ، واذا به القبطان الروسى ..

وذهب الاثنان الى حجرة القبطان ، وكان هناك ديك سمين ، يقف على منضدة فى الحجرة فهشه القبطان الروسى وصرفه ، وجلسا يتحدثان ..

جاءت السفينة الروسية لتحمل شحنة فوسفات من ميناء القصير ، فوقعت لها هذه المأساة • ان القبطان الروسى قد امضى فى البحر ثلاثين عاما ، لم يحدث له فيها مثل هذه الكارثة غير المتوقعة .. ولكنه البحر الاحمر .. بحر الاخطار والتجارب المريرة .

ورفض الروس أن يتخلوا عن السفينة ، فأرسلوا من بلادهم القاطرات والغواصين لترميمها وانتشالها من مكانها لتعود الى روسيا بعد أن تحمل شحنة الفوسفات !

وقال القبطان وهو يختتم قصته عن السفينة الروسية ..

ـ ان نظامهم فى السفينة يختلف تماما عن نظامنا ، القبطان يأكل مع الضباط والبحارة على مائدة واحدة ..

٢٢

ميناء القصير بلد عجوز عمره آلاف السنين ، كان قدماء المصريين يستخدمونه كميناء ومنفى ، وهو فى هذه الأيام مازال يؤدى مهمته الابدية كميناء صغير ومنفى كبير ..

كل الذين يعيشون فى القصير قادمون من مكان قصى بعيد ، انهم قادمون عبر الصحراء من وادى النيل فى الصعيد ليعملوا فى منجم الفوسفات أحيانا ، وفى الصيد أحيانا ، أو قادمون عبر البحار من ايطاليا كمهندسين ومديرين لشركة الفوسفات ..

ميناء يشرب سكانه من ماء البحر ، فليس فيه ماء صالح للشرب يصل اليهم من النيل وليست عندهم آبار ماء .. يأخذون الماء المالح ويرسبون الملح فيه ، ثم يشربونه ..

والقيت نظرة سريعة على بناء المحافظة ، وأمامه عدة مدافع عتيفة أثرية ، صوبت فوهاتها للبحر ،ومن خلفها قلعة مهدمة تنبىء عن معركة حربية قديمة ، قالوا أنها وقعت أيام محمد على ، بينه وبين الوهابيين !

ثم مضيت الى بناء شركة الفوسفات .. ليستقبلنى رجل أسمر نبيل المنظر ، فوق رأسه عمامة مهراجا هندى ، وفى قدميه حذاء كاوتش متسخ ..

كان الرجل يتحدث بوقار ، ويتقدمنى وسط غبار الفوسفات المنتشر من آلات الطحن ، وكأنه نبيل يقودنى الى داخل قصره .

انه عامل فى الشركة ..

وقادنى الرجل الى سرادب تحت الأرض .. تندفع اليه عربات صغيرة قادمة من أعلى بناء المصنع القريب ، وتقف العربة الصغيرة فيملؤها عامل بالفوسفات ، ثم يدفعها وتشدها اسلاك ترفعها عشرات الامتار فى الهواء حتى تصل بحمولتها الى اعلى بناء المصنع ..

وسألت المهراجا النبيل :

— من أين أتيت ياعم ؟

— من ادفو

— ولماذا اتيت ؟

— ليس هناك عمل فى الوادى

— هل انت متزوج ؟

— وعندى اولاد

— وأين هم ؟

— هناك فى الوادى

— وآخر مرة رأيتهم ؟

وأجاب الرجل بهدوء ووقار :

— من سنين !

انه احد الصعايدة الذين يغامرون فى الحياة ، تضيق بهم الدنيا فى بلادهم فيسمعون عن حياة أخرى افضل ، وتتسرب البهم الفكرة فى بطء وتتغلغل فى اعماقهم فى صمت ، ويأتى فجر احد الايام ، فتستيقظ الاسرة .. الزوجة والاولاد ، فلا يجدون رجلهم .

يختفى فجأة دون أن ينبئهم بشىء ، لانه خائف من مصير مغامرته ، خائف أن يثنوه عنها ويردوه عن الاندفاع فيها ، وهو غير واثق من نتائجها وهى تلح عليه وتراوده فى احلام اليقظة والنوم ..

يختفى ، ويظهر وحيدا فى سوق فاكهة فى القاهرة أو الاسكندرية أو فى منجم فى القصير ..

وسألت العامل الصعيدى من جديد :

ـ وهل أنت راض عن حياتك الآن ؟

ـ لا ...

ـ لماذا ؟

ـ لأنه عمل غير مستقر .. كنت فى منجم السكرى للذهب، ثم تعطلت ، وانا الآن هنا ولا ادرى ماذا يحدث غدا ..

ـ وعندما تتعطل ؟

ـ والتفت الرجل الى البحر وقال :

ـ اذهب مع الصيادين ..

ثم ضحك فى وقار ، وكانت ضحكته الوحيدة وقال :

ـ كل الناس فى « الجصير » قد اشتغلوا فى المنجم فترة من الزمن ، وفى الصيد فترة اخرى .

وصعدنا الى أعلى المصنع لارى الفوسفات وهو يصل فى العربات الصغيرة ، فيطحن حتى يصبح ذرات دقيقة ، ثم يغسل بالماء فيتحول الى طين ، ثم يسرى فى مجرى ينقله الى حيث تنتظره سيارات تنقله الى عربات أخرى معلقة بأسلاك فى الهواء ، تحركها حتى تصل بها الى السفن التى تنتظر فى الميناء ..

وقال لى الرجل وهو يشير الى المجرى الذى يتحـرك فيه طين الفوسفات :

ـ انظر الى هذا المجرى .. الا ترى انه يشبه طمبور الفلاح ، هناك مجرى آخر ابتكره المهندسون الايطاليون ، ولكننا صـممنا هذا المجرى « الفلاحى » فاذا به ينقل اضعاف ما ينقله مجـرى الايطاليين ..

وعدت الى الميناء ، وقد حل بها الظلام ، ولم تبق الا اضواء متناثرة فى شارع صغير ممتد امام الميناء .. اضواء منبعثة من دكاكين بقالة ومن مبنى كالكوخ يجلس فيه رجال يلبسـون القمصان القصيرة الاكمام ويلعبون الطاولة .. انه نادى الموظفين .

وكان هناك ضوء آخر ينبعث من البحر .. انه ضوء السفينة تنتظر عودتنا كى تبحر ليلا .

٢٣

لو اراد روائى ان يكتب قصة عن الجاسوسية فنصيحتى له أن يختار ميناء الغردقة على شاطىء البحر الاحمر، مسرحا لقصته.

نظرة واحدة تلقيها على الميناء الصغير ، تملؤك بالريبة والحذر ، انه ميناء وليس ميناء ، لا أرصفة فيه لرسو البواخر ، لا حركة على الشاطىء ، والبلدة لا تزيد على صفين من المبانى أو الاكشاك الخشبية تبدو كأنها مهجورة ، والصمت يسود المكان ، والهدوء شامل ، ومع ذلك تدرك ان ثمة حركة خفية ، ونشاطا غير منظور يختبىء اصحابه بطريقة ما !

وأول ما أشعرني بوجود هذا النشاط هو منظر رجل يغوص فى أعماق الماء ، ظننته أول الأمر سمكة كبيرة ، ثم تبينته ، فاذا به اجنبى أزرق العينين ، يضع حول رأسه قناعا من الزجاج

الشفاف ، ويسبح داخل الماء كالتمساح ، ممسكا ببندقية فى فوهتها حرية ، ويبحث عن سمكة ليصيبها بحربته فى مقتل .

ومشيت فى الطريق شبه المرصوف بين صفوف الاكشاك .. أحد هذه الاكشاك دكان بقال يقبع داخله رجل يلبس جلابية سوداء ، ويضع فوق رأسه عمامة بيضاء كبيرة ، ويغالب النعاس . ونحن فى منتصف النهار ، وليس للدكان اسم ، ولم تعلق على بابه غير لوحة صغيرة ، مكتوب عليها « ممنوع الشكك » اما الزبائن فكانوا مختفين ..

ثم بدأت تطرق أذنى أصوات متفرقة ، صوت رقيق لطفل صغير ينادى على « زايدة » ولا شك أنها طفلة زادت على الحد الذى قرره أبواها لعدد ابنائهما ، فسموها « زايدة » .. وسمعت صوتا آخر يصدر من أحد الاكشاك ، صوت صفعة باليد على خد، ثم صراخ ولد ، وزعيق امرأة .

وانتهى صفا البيوت ، وعدت من جديد الى الميناء ، لارى مركبا صغيرا يتسلل اليها ..

وظهر ثلاثة أو أربعة رجال ، ومن خلفهم بعض الأطفال يصيح واحد منهم :

ــ البالانس ..

البالانس هو مركب الصيد ، وكان قد وصل الى الشاطىء ، ويقفز منه صيادون من نوع غريب ، شبان لفحت الشمس بشرتهم يلبسون القمصان الامريكانى الملونة ، والبطلونات الضيقة ، انهم هواة صيد وليسوا محترفين ، وربما كانوا أى شىء .

وبعد دقائق كان الرجال والاطفال الذين تجمعوا حول البالانس يحملون اسماكا كبيرة ، عائدين بها الى الأكشاك التى خرجوا منها . ووقف ولد صغير حافى القدمين ، وهو يتلفت يمنة ويسرة ، حتى

لمح سيارة فأسرع اليها واوقفها وركبها لتمضى به فى طريق ملتو يختفى وراء هضبة عالية .

وأوقفت أنا أيضا سيارة وركبتها ، وما كدنا نرتفع فوق الهضبة حتى رأيت بلدة أخرى واسعة على مدى البصر ، بين كل بيت أو كشك فيها عشرات أو مئات الامتار ، وفى أماكن متفرقة منها تظهر اعمدة حديدية مرتفعة لمضخات اقيمت فوق آبار الزيت .

وكانت هذه البلدة مهجورة أيضا ، ولا أحد يعمل فى الآبار ، والمضخات صامتة لا ترتفع ولا تنخفض ، والطرقات مقفرة ..

واندفعت السيارة بسرعة مائة كيلو فى الساعة دون أن يعترضها أحد ، أو يفكر سائقها فى أن يستعمل الكلاكسون ، حتى وصلنا الى عمود قائم الى جانب الطريق ، يحمل لوحة مكتوبا عليها « جامعة القاهرة — معهد الاحياء المائية » ، وكان غريبا أن أصادف اسم جامعة القاهرة فى هذا المكان .. انه يضيف الى الغردقة لونا جديدا كأن ما فيها من صمت وهدوء هو احترام لوقار الجامعة ، وحتى لا ينزعج علماء المعهد بأى ضوضاء تخرجهم من تأملهم العلمى .

ودخلت متحف الأحياء المائية ، اسماك محنطة ومكدسة فى الدواليب كأنها كتب ، لا ذوق ولا اناقة فى العرض .. انه يشبه محل أقمشة ملونة ، عبثت به أيد لنساء فضوليات يتفرجن ثم لا يشترين شيئا ..

وكانت الوان السمك رائعة ، لا يمكن أن تصدق العين انه سمك حقيقى كان يعيش فى البحر يوما من الأيام ، انه تحف من الخزف صنعها فنان عبقرى ، اختار ألوانه بدقة ورسمها بفرشاته بعناية .. لا يمكن أن تكون الصدفة وحدها هى مبدعة هذه الألوان ، لقد رسمت النقط الملونة ، والخطوط المنحنية بيد ماهرة فكر صاحبها طويلا قبل أن يبدأ التنفيذ ..

واشار امين المتحف الى سمكة بضة حمراء زاهية الألوان وقال في وقار العلماء :

ـــ هذه تحية كاريوكا ..

لقد أطلقوا عليها اسم الراقصة ، لأنها ترقص دائما في البحر ، ولا تكف طوال حياتها في الماء عن هز خصرها الجميل !

وقدمني أمين المتحف الى عروس البحر .. انثى كاملة في حجم امرأة قصيرة ، ولها ثديان ترضع بهما أولادها الذين تلدهم .. وكانت العروس عارية محنطة ، وقد وقفت على قدميها كعادتها عندما تمشي على الارض !

شاهد الصيادون عرائس البحر لأول مرة على شاطيء شبه جزيرة سيناء ، فظنوها مجموعة من القردة ، ثم تبينوا أنها حيوان مائي يشبه الانسان ، يمشي على قدمين ، ويأكل العشب والنبات، ويغازل ويحب على الأرض ، ويعيش في الماء !

كم من اساطير انتشرت بين البحارة عن عروس البحر ، وكم من قصص رويت عن الذين وقعوا في غرامها من البشر وتزوجوها ثم اختفوا معها في اعماق البحر ، في قصر ابيها ملك البحار .

وقفت أمام العروس المحنطة ، أتأملها وأسأل نفسي هل من الممكن أن أقع في حبها .. فما السبب اذن في كل هذه الأساطير ؟ ربما كانت حياة الحرمان بين البحارة هي التي جعلتهم يتخيلون عروسا رائعة الجمال يقعون في حبها .

انه الكبت والحرمان ، وحياة رجال البحر بلا نساء هي التي خلدت عروس البحر ..

٢٤

وليس الحرمان من المرأة مقصورا على رجال البحر ، انه ظاهرة منتشرة بين كل الموظفين غير المتزوجين الذين يعيشون فى موانىء البحـــر الأحمر .

وقد استطعت أن أتعرف على بعض هؤلاء الموظفين الشبان فى ميناء الطور بعد أن غادرنا الفردقة ..

كنا أربعة نركب سيارة جيب تندفع بنـــا فى الطريق الجبلى خارج ميناء الطور فى اتجاه شرم الشيخ .. ومررنا ببيـــوت بعض الاعراب . وكانت اعرابية واقفة تغطى وجهها ببرقع ذهبى فيه سلوك حريرية ، وقطع من قماش زرقاء وحمراء . وماكنا نستطيع أن نتبين قسمات وجه المرأة ، فلا يبـــدو من خلف البرقع غير عينين سوداوين واسعتين ، تنبئان عن حياة شاقة واجهاد متصل وأوقفنا الجيب الى جوار الاعرابية وسألها أحد الشبان :

ــ معك فراخ ؟

وأجابت المرأة بصوت رفيع متحشرج :

ـ ما فى فراخ

ـ معك حمام ؟

ـ ما فى حمام

ـ معك بيض ؟

ـ ما فى بيض

وانتبه الشاب الى قطيع من الماعز الى جانب الاعرابيـــة ، فسألها :

ـ معك معيز ؟

وأجابت الاعرابية :

ـ مانبيعهم ..

وكادت الاسئلة تفرغ من راس الشاب فجاءه خاطر جعله يسرع بالسؤال :

ـ معك ماء للسيارة ؟

وضحكت الاعرابية لاول مرة قائلة وهى تشير الى الجيب :

ـ بتشرب ماء ؟!

وجرت المرأة تختفى وراء البيوتِ المقامة من الصفائح الصدئة ، وقد ادركت اخيرا أن الشاب يعاكسها ..

انه لا يريد منها شيئا ، ولا يفكر فى مغازلتها ، كل ما يشعر به هو انه فى حاجة الى أن يسمع صوت أنثى ، أن يخاطب امرأة، أى امرأة فى هذه الصحراء التى لا يجـــد فيها فتيـــات كاللاتى يراهن فى القاهرة أو الاسكندرية ويتحدث معهن ويقع فى حبهن .

وليس أمام الشبان الغرباء الذين جاءت بهم وظائفهم الى هذا المكان الا أن يقضوا الساعات الطوال يتجولون هنا وهناك ، وبين ساعة وأخرى يهتف واحد منهم فى فرح :

ـ ها هى .. هناك .

ويستمر الشبـــان الاخرون فى مكانهم وينظـــرون الى حيـــث

يشير الهاتف الفرحان فلا يجدون غير النخيل والماعز والصحراء .

ويقول لهم الشاب فى حزن بعد فرح :

— لقد اختفت .. رأيتها ، ولكنها اختفت بسرعة ..

يتحدث كأنه وجد كنزا ، أو رأى ليلة القدر واختفت قبل أن يتمنى شيئا يتحقق ، وكل ما رآه فى الحقيقة شبح غامض لاعرابية تسير بعيدا عنه بمئات الامتار ..

وعندما تختفى النساء تماما ، ويجهدون أنفسهم بحثا عنهن بلا جدوى يجلسون فى ملل ويروى كل واحد منهم نكتة ..

× × ×

واذا كان من العسير أن تتحدث مع اعرابية ، فمن السهل جدا أن تتفاهم مع الاعرابى الرجل .. انه سريع الفهم ، علمته حياة الصحراء القاسية كل حيلة ..

وقد حدث بعد أن فرت الاعرابية التى طلب منها الشاب الماء للجيب ، وهى تضحك من غباء ذلك الشاب الذى يريد اقناعها بأن السيارة تشرب الماء .. حدث أن سمعنا اعرابيا عجوزا ، فتقدم منا سائلا : هل نطلب ماء حقا ؟

وارتبك سائق الجيب ، واضطر أن يقول له « نعم » ..

واختفى الرجل وعاد ومعه صفيحة مملوءة بالماء وتقدم من غطاء الجيب ليرفعه ولم يتصور الشاب السائق ان الاعرابى يعرف كيف يرفع غطاء الجيب ، كان يظنه خبيرا بالماعز والخيول والجمال ولا يفهم شيئا عن السيارات الامريكية ، وحاول الشاب أن يرفع الغطاء بنفسه ، فلم يفلح .. وببساطة تقدم الاعرابى العجوز للمرة الثانية ، وفى ثوان كان الغطاء مرفوعا والصفيحة فى يده يصب منها الماء فى الخزان !

واقترب طفل صغير فى الخامسة من عمره يرقبنا فى فضول . وسألته :

ـ هل رأيت اليهود ؟

وأجاب الطفل فى هدوء :

ـ لا ..

ـ أين كنت عندما جاءوا ؟

واشار الطفل الى الجبل الكبير خلفه وقال :

ـ هناك ..

ـ هل رأى أبوك اليهود ؟

ـ رآهم فى الليـــل ، كان يهبط من الجبل فى غفلة منهم ، ويحضر لنا الطعام ويعود ..

لم يحكم اليهود هؤلاء العرب لحظة واحدة خلال تلك الفترة التى دخلوا فيها شبه جزيرة سيناء غدرا ، اختفى الاعــراب فى الجبل وسطوا على اليهود فى الليل ..

وحاول اليهود الانتقام من هؤلاء الاعراب أثناء انسحابهم .. حاولوا بخسة وبشاعة أن يقتلوهم على طريقة المجرمين ؛ ذهبــوا الى صيدلية المستشفى وخلطوا السم بما فيها من دواء ، حتى اذا استعمله الأطباء بعد ذلك مع مرضاهم قتلوهم .

لقد انسحب العدو ليكمن وراء الجبال كالأفعى السامة ، ولكن هذا الطفل الصغير لا يكترث بشىء .. انه لم ير اليهــود ، بل يسخر منهم ؛ وهو يتذكر رحلات أبيه فى الليل ليعود له بالطعام .

× × ×

وتركنا الاعرابى العجوز بعد أن ملأنا السيارة بالماء ، وعدنا الى الميناء ، والحديث يدور حول الزواج .. ان الشبان يتساءلون كيف يجدون زوجة لهم ..

وتنهد واحد منهم يائسا :

www.library4arab.com/vb

ـ لو تظهر لى عروسة البحر ..

ثم التفت الى وسألنى بلهجة جادة :

ـ من ترضى الزواج بى .. واذا كانت هناك من ترضى فكيف أعرفها ، اننا نعيش فى مجتمع بلا نساء ، لا أمل لنا فى أن نتعرف على واحدة كل ما نستطيعه عندما نذهب الى القاهرة هو أن نقابل امرأة محترفة تبيح لنا الحب مقابل نقود ، انهم يتحدثون كثيرا عن اعراض الشبان عن الزواج ،وهأنذا أصيح بأعلى صوتى انى أريد زوجة .. أريد أن أتزوج يا ناس يا عالم ولكن من يسمع ومن يجيب .. وتغامز الآخرون وقالوا انه أصيب بلوثة جنون .. ولكنى أحسست أنه صادق فى شكواه حائر فى معرفة الحل لازمته .

واستأنف الشاب يشكو :

ـ ان مشكلتى من نوع غريب .. معى النقود لاوفر لزوجتى حياة معقولة ، عندى شبابى وصحتى ، وأنا موظف وأظن أن مركزى محترم ، ولكن ببساطة كيف أتعرف على واحدة أخاطبها وأتفاهم معها ، وأحس بأنى سأكون سعيدا بالزواج منها ، ما فائدة أن يعلمونا ثم يريدون منا أن نتزوج « عميانى » كما كانت تتزوج « ستى » رحمها الله !

× × ×

ولما غادرت ميناء الطور ، وعدت الى السفينة لتبحر بنا الى السويس استمعت الى أحد البحارة يسأل زميلا له وهو يحك ذقنه بأظافره فى حيرة :

ـ اسمع .. كم مضى علينا من أيام ونحن فى البحر ؟

ـ عشرة أيام ..

ـ وكم سنبقى فى السويس ؟

ـ لا أدرى .

ـ وزوجتك فى الاسكندرية .. متى رأيتها آخر مرة ؟

ـ لا تذكرنى .. لقد نسيت !!

وعاد الرجل يحك ذقنه فى وجوم .



www.library4arab.com/vb

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)

www.library4arab.com/vb

هذا الكتاب

● هناك وسط مياه البحر الأحمر، بالقرب من الشاطئ، السودانى جنوبًا، يعيش ثلاثة مصريين فوق جزيرة من المرجان ليس فيها زرع ولا طعام ولا ماء ، ولا تقع أبصارهم على أرض .. فهم لا يرون الشــاطئ، المصرى غربًا ، ولا الشاطئ، السعودى شرقًا ، ولا الشاطئ، السودانى جنوبًا ، وليست لديهم وسـيلة ما للمواصلات ، ولا يستطيعون العوم فى الماء لأن وحوش البحر المفترسة تحـوم حولهم .. القرش ذو المنشار الذى يبلغ طوله مترًا يبتر به كل من يراه أمامه ويلتهمه ، أو القرش ذو المطرقة الكبيرة ، كأنها فأس خرافى يمزق أشلاء كل ما يهوى عليه ..

***

● .. وصاح القبطان :

ـ خمس درجات سقالة (شمال) ..

وظلت السفينة مندفعة إلى الشُّعب المرجانية

وصاح القبطان يصدر أوامره من جديد :

ـ عشر درجات سقالة ..

وردد البحار الممسك بالضمان (الدفة) أوامـــر القبطان ، مما يدل على أنه استمع إلى الأمر وقام بتنفيذه .

ولكن السفينة ظلت تتقدم فى طريقها ولا تحيد عنه إلى الشمال !

وصرخ القبطان فى عنف ، وسرى صوته هادرًا فى البوق من برج القيــادة إلى أسفل حيث يمسك البحار بالضمان ، ولكن البحار أجاب فى الحال ، بأنه أستمع إلى الأمر ونفذه ..

وتوجس القبطان الخطر ، فالسفينة رغم ذلك تقترب فى كل لحظة من مصيرها المحتوم .

***

● إن رجال البحر لا يذكرون اسم البحر فى حديثهم أبدا ، وعندما يتكلمون دون أن يذكروا ما يتحدثون عنه ، فيقولون .. إنه هادىء ، أو عال ، أو شديد ، أو زبت ، فيجب أن تعرف أنهم يتحدثون عنه .. البحر !

وهم الرجال الذين عندما يتحدثون عنه ، عن القوى .. الجبار .. الرحيم ، فتعرف أنهم يتكلمون عن الله ، دون أن يذكروا اسمه ..

www.library4arab.com/vb

صورة الله عند البحارة .. هى البحر .

« فتحى غانم »

